

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سُورَةُ الْأَحْقَافِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف
أما ترتيبها في النزول فقد كان بعد سورة « الجاثية » .

والذي يراجع ما كتبه العلماء في ترتيب سور القرآن الكريم ، يجد أن
أن الحواميم قد نزلت مرتبة كترتيبها في المصحف .

٢ - وسورة « الأحقاف » ، عدد آياتها خمس وثلاثون آية في المصحف
الكوفي ، وأربع وثلاثون آية في غيره . وهي من السور المكية .

قال الإلوسي : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها
نزلت بمكة ، فأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء . . .

واستثنى بعضهم قوله - تعالى - : « قل أرأيتم إن كان من عند الله ، وكفرتم
به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله . . . » ،

واستثنى بعضهم قوله - تعالى - : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني
أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي . . . » إلى قوله - تعالى - : « إنهم
كافوا خاسرين » .

٣ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان
جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبتلقين النبي - صلى الله عليه وسلم -
الجواب السديد الذي يرد به على المشركين ، فقال - تعالى - : « قل أرأيتم
ما تدعون من دون الله . أرؤى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك

في السموات ، اتتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين

ثم تحكى السورة الكريمة بعض الأعدار الزائفة التي اعتذر بها الكافرون وردت عليهم بما يطلبها ، فقال - تعالى - : وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم

٤ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . وعن الوصايا الحكيمة التي أوصى الله - تعالى - بها الأبناء نحو آبائهم ، وعن حسن عاقبة الذين يعملون بتلك الوصايا ، فقال - تعالى - : أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون

كما بينت السورة الكريمة سوء عاقبة الكافرين ، الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، قال - تعالى - : ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون . .

٥ - ثم حذرت السورة المشركين من الإصرار على شركهم ، وذكرتهم بما حل بالمشركين من قتلهم كقوم عاد وثمود ، وبينت لهم أن هؤلاء الكافرين لم تغن عنهم أموالهم ولا قوتهم شيئا ، عندما حاق بهم عذاب الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - : ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلناهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فآغى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون

٦ - ثم أخذت السورة الكريمة في أواخرها ، في تسلية الرسول ،

- صلى الله عليه وسلم - وفي إدخال السرور على قلبه بأن ذكرته بحضور نفر من الجن إليه ، للاستماع إلى القرآن الكريم ، وكيف أنهم عندما استمعوا إليه أوصى بعضهم بعضاً بالإفصات وحسن الاستماع ، وكيف أنهم عندما عادوا إلى قومهم ، دعواهم إلى الإيمان بالحق الذي استمعوا إليه ، وبالنبي الذي جاء به ، فقال - تعالى - حكاية عنهم : « يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به ، يَغْفِرَ لَكُمْ من ذنوبكم ويَجْرِمَ من عذاب أليم . . . » .

ثم ختمت السورة الكريمة بأمره - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على أذى قومه ، فقال - تعالى - :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار : بل يهلك إلا القوم الفاسقون . » .

٧ - والمتأمل في سورة « الأحقاف » ، يراها ، قد أقامت الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى كمال قدرته . وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبليعه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن يوم القيامة حق .

أقامت الأدلة على كل ذلك . بأبلغ الأساليب وأحكمها ، ومن ذلك أنها ساقت ألواناً من مظاهر قدرة الله - تعالى - في خلقه ، كما ذكرت شهادة شاهد من بني إسرائيل على أن الإسلام هو الدين الحق كما طوفت بالناس في أعماق التاريخ لتعلمهم على مصارع الغابرين ، الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، كما عقدت عدة مقارنات بين مصير الأخيار ومصير الأشرار . . .

وبذلك تكون السورة قد ساقت من الأدلة ما فيه الكفاية والإقناع

لأولى الأسباب ، على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه
عن ربه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة - مدينة نصر

صباح السبت ١٠/٣/١٤٠٦ هـ

٢٣/١١/١٩٨٥ م

التفسير

قال الله تعالى : ه حَم (١) تنزيلُ الكتابِ من الله العزيزِ
الحكيم (٢) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل
مُسمى ، والذين كفروا عما أُنذروا مُعرضون (٣) قل : أرايتم ما تدعون
من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في
السموات ، أثوني بكتابٍ من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم
صادقين (٤) ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له
إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون (٥) وإذا حُشِر الناسُ كانوا
لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦) .

سورة الاحقاف ، من السورة التي افتتحت ببعض الحروف الهجائية ،
وأقرب الأقوال إلى الصواب في معناها أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ،
قد وردت في افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى به
الله - تعالى - المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف
التي يعرفونها ، ويقدرّون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان
بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة فصحاؤهم وبلغاهم
دونها بمراحل شاسعة .

وفضلاً عن كل ذلك فإن تصدير بعض السور ، بمثل هذه الحروف المقطعة
يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم ، إلى الإنصات
والتدبر . لأنه يطرُق أسماعهم في أول التلاوة بألفاظ غير مألوفة في مجارى
كلامهم .

وذلك مما يلفت أنظارهم، ليمتدوا بما براد منها ، فيسمعوا حكاما وحججا ومواعظ من شأنها أنها تهديهم إلى الحق ، ثم كانوا يعقلون .

وقد سبق أن بينا - بشيء من التفصيل - آراء العلماء في هذه الحروف المقطعة (١) .

وقوله - تعالى - : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله - تعالى - ، لا من عند غيره .

أى : أن هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - « العزيز ، أى : صاحب العزة الغالبة ، والسلطان القاهر » الحكيم ، فى كل أقواله وأفعاله وتصريفه لشئون خلقه ...

ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق هذا الكون عبثا ، فقال : « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ... »

س قوله : « إلا بالحق » ، استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وهو صفة لمصدر محذوف ، وقوله : « وأجل مسمى » ، معطوف على الحق ، والكلام على تقدير مضاف محذوف .

أى : ما خلقنا هذا الكون بسبائه وأرضه وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، ما خلقنا كل ذلك إلا خلقا ما تبص بالحق الذى لا يحوم حوله باطل وبالحكمة التى اقتضتها إرادتنا ومشيتنا ...

وما خلقنا كل ذلك - أيضا - إلا بتقدير أجل معين ، هو يوم القيامة الذى تنفى عنده جميع المخلوقات .

فالمراد بالأجل المسمى : يوم القيامة الذى ينتهى عنده آجال الناس ، ويقفون بين يدى الله - تعالى - للحساب والجزاء .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما

(١) راجع تفسيرنا لسور : البقرة والأعراف ويونس

باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، (١) .

وقوله - سبحانه - : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين .
ما خلقناهما إلا بالحق ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من خالقهم فقال : والذين كفروا عما أنذروا معرضون ، والإنذار : الإعلام المقترن بتهديد . فكل إنذار لإعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

و دما ، في قوله : عما أنذروا ، يصح أن تكون موصولة والمائد محذوف .
ويصح أن تكون مصدرية .

والإعراض عن الشيء : الصدود عنه ، وعدم الإقبال عليه : وأصله من المعرض - بضم العين - وهو الجانب ، لأن المعرض عن الشيء يعطيه جانب عنقه ، مبتعدا عنه .

أى : نحن الذين خلقنا بقدرتنا وحكمتنا ، السموات والأرض وما بينهما ، بالحق الذى اقتضته مشيئتنا ، وبتقدير أمد معين ، عند انتهائه ، تبدل الأرض والسموات ، . . .

ومع كل هذه الدلائل الساطعة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فالذين كفروا بالحق ، عن الذى أنذروه من الحساب والجزاء معرضون ، وفي طغيانهم يعمهون . . .

فآية الكريمة قد وضحت أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبثا ، وأن لهذا الكون نهاية ينتهى عندها ، وأن الكافرين - لجهلهم وعنادهم - لم يستجيبوا لمن دعاهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولم يستعدوا لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح . . .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ هؤلاء الكافرين

(١) سورة دص ، الآية ٢٧

(٢) سورة ، الدخان الآية ٢٨

على جهالاتهم وعنادهم : فقال : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرؤى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ... »
وقوله : « أرأيتم » بمعنى أخبروني ، ومفعوله الاول قوله « ما تدعون » ،
وجملة « ما خلقوا » سدت مسدداً مفعوله الثاني .

وجملة : « أرؤى » مؤكدة لقوله : « أرأيتم » لأنها - ايضاً - بمعنى أخبروني .
والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين - على سبيل التوبيخ
والنأيب - أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله - تعالى - ، أي
شيء من الأرض أوجده هذه الآلهة ؟ إنها قطعاً لم تخلق شيئاً من الأرض .
فالأمر في قوله « أرؤى » للتعجيز والتبكي .

و « أم » في قوله : « أم لهم شرك في السموات » للإضراب عن أن يكونوا
قد خلقوا شيئاً ، إلى بيان أنهم لا مشاركة لهم مع الله في خلق السموات أو
الأرض أو غيرهما . فقوله : « شرك » بمعنى مشاركة ...

أي : بل أ لهم مشاركة من الله - تعالى - في خلق شيء من السموات ؟ كلا ،
لا مشاركة لهم في خلق أي شيء ، وإنما الخالق لكل شيء هو الله رب العالمين .
فالاستفهام للتوبيخ والتقريع .

فالمراد من الآية الكريمة نفي استحقاق معبوداتهم لأي لون من ألوان
العبادة بأبلغ وجه ، لأن هذه المعبودات لا تدخل لها في خلق أي شيء . لا من
العوالم السفلية ولا من العوالم العلوية ، وإنما الكل مخلوق لله - تعالى - وحده .
ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : « هذا خلق الله
فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، (١) » .

وبعد أن أغهمهم - سبحانه - من الناحية العقلية ، أتبع ذلك بإغهمهم
بالادلة النقلية ، فقال - تعالى - : « اتقوا بكتاب من قبل هذا ، أو أثاره من
علم ، إن كنتم صادقين » .

والأمر في قوله - تعالى - « اتقوني » ، للتعجيز والتهكم - أيضا - كما في قوله :
« أروني » .

وقوله : « أثاره من علم ، أى : بقية من علم يؤثر عن الأولين ، وينسب إليهم .
قال القرطبي : وفي الصحاح : « أو أثاره من علم ، أى : بقية منه . وكذلك
الآثاره - بالتحريك - ويقال : سمعت الإبل على أثاره ، أى : على بقية من
شحم كان فيها قبل ذلك ... »

والأثاره : مصدر كالسباحة والشجاعة . وأصل الكلمة من الأثر ؛ وهى
الرواية . يقال : أثرت الحديث أثره أثراً وأثاره وأثره فاما أثر ، إذا ذكرته
عن غيرك ، ومنه قيل : حديث مأثور ، أى : نقله الخلف عن السلف ، (١) .

أى : هاتوا لى - أيها المشركون - كتابا من قبل هذا القرآن يدل على صحة
ما أنتم عليه من شرك ، فإن لم تستطعوا ذلك - ولن تستطيعوا - ، فأتوني بقية
من علم يؤثر عن السابقين ، ويستدل بهم ، ويشهد لكم بصحة ما أنتم فيه من كفر .
« إن كنتم صادقين ، فيما تزعمونه من أنكم على الحق . »

وهكذا أخذ عليهم القرآن الحجة ، وألزمهم بإعلان ما هم عليه من ضلال ،
بالأدلة العقلية المتمثلة فى شهادة هذا السكون المفتوح ، وبالأدلة النقلية المتمثلة
فى أنه لا يوجد عندهم كتاب أو ما يشبه الكتاب ، يستندون إليه فى استحقاق
تلك المعبودات للعبادة .

والحق أن هذه الآية الكريمة على رأس الآيات التى تخرس أصحاب الأقوال
التي لا دليل على صحتها ، وتعلم الناس منها حجج البحث الصحيح ، الذى يوصلهم
إلى الحق والعدل ...

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين قد بلغوا الذروة فى ضلالهم وجهلهم
فقال : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، » .

أى لا أحد أشد ضلالا وجحلا من هؤلاء المشركين الذى يعبدون من دون الله - تعالى - آلهة ، هذه الآلهة لا تسمع كلامهم ، ولا تعقل نداءهم ، ولا تشعرو بعبادتهم لها منذ أن عبدوها ، إلى أن تقوم الساعة .

فإذا ما قامت الساعة ، تحولت هذه الآلهة - بجانب عدم شعورها بشيء - إلى عدوة لهؤلاء العابدين لها .

قال بعض العلماء : وفى قوله : « إلى يوم القيامة » ، نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الإستجابة ، ومن شأن الغاية اقتناء المعيا عندها . لكن عدم الإستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى يوم القيامة لا يستجيبون لهم .

فالوجه - والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة ، بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها ؛ إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا ، لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الإستجابة ، والحالة الثانية التى فى القيامة زادت على عدم الإستجابة ، بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم ... (١)

ثم أكد - سبحانه - عدم إحساس الأصنام بعبادتها فقال : « وهم عن دعائهم غافلون » ،

أى : وهذه الأصنام عن عبادة عابديها غافلة ، لا تدرك شيئا ، ولا تحس بمن حولها .

قال صاحب الكشف : إنما قيل « من » ، و « هم » ، لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتميز بجلا وغباوة .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٩٥

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٩٦

ثم بين ما يكون بين العابدين والمعبودين من عداوة يوم القيامة فقال :
« وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، »

أى : وإذا جمع الله - تعالى - الناس للحساب والجزاء يوم القيامة ، صار
الكفار مع من عبدوهم من دون الله أعداء ، يلعن بعضهم بعضا ، « وكانوا ،
أى : المعبودون بعبادتهم ، أى : بعبادة الكفرة لإيham ، كافرين ، أى :
ساحدين مكذبين ، »

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا
لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكنون عليهم عدا ، (١) »

وقرله - سبحانه - : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في
الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ، وماواكم
النار وما لكم من ناصرين ، » (٢)

• • •

ثم لقن الله - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أجوبة أخرى ، ليرد
بها على الأقوال الزائفة التى تفوه بها المشركون ، فقال - تعالى - :

« وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يِنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَا مِنَ الرُّسُلِ
وَمَا أَذِرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا

(١) سورة مريم . الآية (٨١) ، ٨٢

(٢) المنكبات الآية ٢٥

إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ،
وَشَهِدَ شَاعِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنْ أَفَّاكَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) .

وقوله : تتلى ، من التلاوة بمعنى يتمل وتترجل . أى : وإذا تتلى على هؤلاء
الكافرين ، آياتنا الواضحة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا . قال الذين كفروا
للحق لما جاءهم ، أى : قالوا للآيات المتلوة عليهم ، والتي اشتملت على الحق
الذى يهديهم إلى الصراط المستقيم .

« هذا سحر مئين ، أى : قالوا : هذا الذى جئنا به يا محمد سحر واضح ،
وتمويه ظاهر .

والتعبير بقوله - سبحانه - : « قال الذين كفروا للحق لما جاءهم ، : يشعر
بأن هؤلاء الجاحدين الجاهلين ، قد بادروا إلى وصف ما جاءهم به الرسول
- صلى الله عليه وسلم - بأنه سحر ، بدون تفكير أو تأمل أو انتظار .

وفى وصفهم لما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه سحر ، دليل
على عجزهم عن الإتيان بمثله ، أو بسورة من مثله .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من أكاذيبهم فقال : « أم يقولون إفترأه ... »
و « أم ، هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، وتفيد الإضراب والانتقال من
حكاية أقوالهم الباطلة السابقة ، إلى أقوال أخرى أشد منها بطلاناً وكذباً .
والاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم .

والإفترأه : أشنع الكذب . أى : بل يقول هؤلاء الكافرون لك - أيها
الرسول الكريم - إنك لإفتريت هذا القرآن وإخترقته من عند نفسك . ؟

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يخرسهم فقال
« قل إن إفتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً ... »

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - في الرد على زعمهم أنك افتريت هذا القرآن : إن كنت على سبيل الفرض والتقدير قد افتريته من عند نفسك ، ها قبني ربى ، ولا تستطيعون أنتم أو غيركم أن تمنعوا عنى شيئا من عذابه وعقابه ، وما دام الأمر كذلك فكيف افتريه ، وأنا أعلم علم اليقين أن افتراء شئ منه يؤدى إلى عقابى ؟

جواب د إن ، فى قوله : د إن افتريته ، محذوف ، وتقديره : عاجلنى بالعقوبة ، وقوله : د فلا تملكون لى من الله شيئا ، قام مقامه .

قال - تعالى - . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه بالبين . ثم لقطنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين

وقوله : د هو أعلم بما تفيضون فيه ، أى : الله - تعالى - الذى زعمتم أنى افترى عليه الكذب ، هو أعلم منى ومنكم ومن كل المخلوقات . بما تندفعون فيه من القدح فى آياته ، والإعراض عن دعوته ، وسيجازيكم على ذلك بما تستحقونه من عقاب .

فقوله : د تفيضون ، من الإفاضة ، وهى الأخذ فى الشئ باندفاع وعنف وأصله من فاض الإناء إذا سال بشدة .

وقوله - سبحانه - : د كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ، تهيب لهم من الإنسياق فى كفرهم ، وترغيب لهم فى الدخول فى الإيمان لينالوا مغفرة الله - تعالى - ورحمته .

أى : كفى بشهادة الله - تعالى - بينى وبينكم شهادة ، فهو الذى يعلم أنى صادق فيما أبلغه عنه ، ويعلم أنكم الكاذبون فيما تزعمونه ، وهو - سبحانه - الواسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأتاب .

ثم أمره الله - تعالى - أن يبين لهم أن ما جاءهم به من هداية ، قد جاء بها (٢ - سورة الأحقاف)

الرسول من قبله لأفوامهم ، وأنه رسول كسائر الرسل السابقين فقال - تعالى -
 « قل ما كنت بدعا من الرسل ... »

والبدع من كل شيء : أوله ومبدؤه . يقال : فلان بدع في هذا الأمر ، أي :
 هو أول فيه دون أن يسبقه فيه سابق ، من الإبتداع بمعنى الاختراع .

أي : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إني لست أول رسول أرسله الله
 - تعالى - إلى الناس ، وإنما سبقني رسل كثيرون أنتم تعرفون شيئا من أخبارهم
 ومن أخبار أفوامهم ، وما دام الأمر كذلك فكيف تنكرون نبوتي ، وتشككون
 في دعوتي ؟

وقوله - سبحانه - : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى
 إلي ، وما أنا إلا نذير مبين » ، بيان لوظيفته - صلى الله عليه وسلم -

أي : وإني وأنا رسول الله لا أعلم ما سيفعله الله - تعالى - بي أو بكم في
 المستقبل من أمور الدنيا ، هل سيبقى معكم في مكة أو سهاجر منها ، وهل
 سيصيبكم العذاب عاجلا أو آجلا ؟ فإني ما أفعل معكم ، ولا أقول لكم إلا
 ما أوحاه الله - تعالى - إلي ، وما أنا إلا نذير مبين ، أوضح لكم الحق من
 الباطل ، وأخوفكم من سوء المصير ، إذا ما بقيتم على كفركم وشركم .

فالمقصود بقوله - تعالى - : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » ، أي : في
 دار الدنيا ، أما بالسبب للآخرة ، فأنه - تعالى - قد بشره وبشر أتباعه بالثواب
 العظيم في آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ولسوف يعطيك ربك
 فترضى » . وقوله - سبحانه - : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا
 كبيرا » .

قال الامام ابن كثير ما ملخصه : قال الحسن البصري في قوله : « وما أدري
 ما يفعل بي ولا بكم » ، أي : في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الانبياء قبلي ؟ أم

أنتقل كما قتلوا ، ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة . أما في الآخرة
فعاذ الله ، قد علم أنه في الجنة .

وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك
أن هذا هو اللائق به - صلى الله عليه وسلم - ، فإنه بالنسبة للآخرة ، جازم
أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه
أمره وأمر المشركين . أيؤمنون أم يكفرون فيمذبون فيستأصلون
بكفرهم ، (١)

والمتدبر في هذه الآية الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسنى ألوان
الآدب من النبي - صلى الله عليه وسلم - مع خالقه - عز وجل - ، فقد فوض
- صلى الله عليه وسلم - أمره إلى خالقه ، وصرح بأنه لا يتبع إلا ما يوحى
إليه - سبحانه - وأنه لا علم له بالغيب ، وإنما علم ذلك إلى الله - تعالى - وحده
ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى ، أن
يذكرهم بإيمان العقلاء من أهل الكتاب بهذا الدين ، لعلمهم عن طريق هذا
التذكير يقطعون عن كفرهم وعنادهم فقال : دقل أرأيتم إن كان من عند الله
وكفرتم به . . .

أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : أخبروني إن كان
هذا الذي أوحاه الله - تعالى - إلى من قرآن ، هو من عنده - تعالى -
وحده ، والحال أنكم كفرتم به ، أستم في هذه الحالة تكونون ظالمين لأنفسكم
وللاحق الذي جنتكم به من عند خالفكم ؟ لاشك أنكم في هذه الحالة تكونون
ظالمين جاحين .

وقوله : - سبحانه - : دشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فأمن
واستكبرتم . . . معطوف على ما قبله على سبيل التأكيد لظلمهم .

أى : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، مع أن شاهدا من بنى إسرائيل الذين تشفون بشهادتهم ، قد شهد على مثل القرآن بالصدق . لاتفاق التوراة والقرآن على وحدانيته الله - تعالى - وعلى أن اليعث حق ، وعلى أن الجزاء حق ... فأمن هذا الشاهد بالقرآن وبمن جاء به وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستكبرتم أنتم من الإيمان ...

ألستم فى هذه الحالة تكونون على رأس الظالمين الجاحدين لكل ما هو حق وصدق ١٩

جواب الشرط فى الآية محذوف . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ومع ذلك لم تؤمنوا فقد كفرتم وظلمتم ، والله - تعالى - لا يهدى القوم الذين من شأنهم استحباب الظلم على العدل ، والعمى على الهدى .

وشبيه بهذه الآية قوله : - تعالى - : « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ، » .

قال صاحب الكشف - رحمه الله - : جواب الشرط محذوف تقديره . « إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ، ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله - تعالى - : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، » .

والشاهد من بنى إسرائيل : عبد الله بن سلام ... وفيه نزل : « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ... » .

والضمير للقرآن . أى : على مثله فى المعنى ، وهو ما فى التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك .. (١)

وعلى رأى صاحب الكشف تكون الآية مدنية فى سورة مكية ، لأن إيمان عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - كان بالمدينة ولم يكن بمكة .

ومن المفسرين من يرى أن الآية الكريمة نزلت في شأن كل من آمن من أهل الكتاب ، وأنها لم تنزل في عبد الله بن سلام بصفة خاصة .

قال الإمام ابن كثير : وهذا الشاهد اسم جنس ، يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام . وهذه كقوله - تعالى - : « ولذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين » . . .

قال مسروق والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام . - هذه الآية مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . . .

وقال مالك عن أبي النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لأحد يمشى على الأرض : « إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام . قال : وفيه نزلت : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » . . . وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة .. (١) وعلى أية حال فالمقصود بالآية الكريمة إثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأن العقلاء من أهل الكتاب قد شهدوا بذلك ، وآمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - . . . فكان من الواجب على المشركين - لو كانوا يفتقرون - أن يفتقروا عن عقادهم ، وأن يتبعوا الحق الذي جاءهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

• • •

ثم حكى - سبحانه - بعض الأعذار الفاسدة ، التي اعتذر بها الكافرون عن عدم دخولهم في الإسلام ، ورد عليهم بما يكتبهم ، وبشر المؤمنين الصادقين بما يشرح صدورهم فقال :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ (١) » وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِكَ عَرَبِيًّا ، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) » .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا .. » روايات منها : أن شركى مكة حين رأوا أن أكثر المؤمنين من الفقراء ، كهمار ، وبلال ، وعبد الله بن مسعود .. قالوا ذلك .

وسبب قولهم هذا ، اعتقادهم الباطل ، أنهم هم الذين لهم عند الله العظمة والجاه والسبق إلى كل مكرمة ، لأنهم هم أصحاب المال والسلطان . أما أولئك الفقراء فلا خير فيهم ، ولا سبق لهم إلى خير ..

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا - على سبيل السخرية والاستخفاف بهم - ، لو كان هذا الذى أنتم عليه من الإيمان بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - حقًا وخيرًا ، لما سبقتهمونا إليه ، ولما سبقنا إليه غيركم من المؤمنين ، لأننا نحن العظماء الأغنياء ... وأنتم الضعفاء الفقراء ..

فهم - لانطماس بصائرهم وغرورهم - توهموا أنهم لغناهم وجاههم هم المستحقون للسبق إلى كل خير ، وأن غيرهم من الفقراء لا يعقل ما يعقلونه ، ولا يفهم ما يفهمونه ..

ومن الآيات الكريمة التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا .. (١)

وقوله - سبحانه - : « وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، تعجيب من غرورهم وعنادهم ، ورميهم الحق بما هو برى منه .

و « إذ ، ظرف لكلام محذوف دل عليه الكلام ، أى : وإذا لم يهتدوا بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عنده ، ظهر عنادهم واستكبارهم ، وقالوا هذا القرآن كذب قديم من أخبار السابقين ، نسبه محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه .

وشبه بهذه الآية - قوله - تعالى - : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ... » (٢)

ثم بين - سبحانه - أن هذه القرآن هو المهيم على الكتب السماوية التي سبقته فقال - تعالى - : « ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ... »

أى : « ومن قبل هذا القرآن الذى أنزلناه على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، كان كتاب موسى وهو التوراة ، إماما ، يهتدى به فى الدين « ورحمة » من الله - تعالى - لمن آمن به .

وقوله : « ومن قبله ، خبر مقدم ، و « كتاب موسى ، مبتدأ مؤخر ، وقوله : « إماما ورحمة ، حالان من « كتاب موسى ، .. »

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، الرد على قائلهم فى القرآن « هذا إفك قديم ، ، فكأنه - تعالى - يقول لهم : كيف تصفون القرآن بذلك ، مع أنه قد سبقه كتاب موسى الذى تعرفونه ، والذى وافق القرآن فى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وفى غير ذلك من أصول الشرائع :

ثم مدح - سبحانه - هذا القرآن بقوله : « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين . »

أى : وهذا القرآن الذى أنزلناه على نبيينا محمد - صلى الله عليه وسلم - مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمته ، ومصدق لغيره من الكتب السماوية السابقة وأمين عليها ، وقد أنزلناه بلسان عربى مبين ، امتثانا منا على من بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيهم - وهم العرب . .

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من وظيفة هذا الكتاب : الإنذار للظالمين بسوء المصير إذا ما أصروا على ظلمهم ، والبشارة للحسنين بحسن عاقبتهم ، بسبب إيمانهم وإحسانهم .

فاسم الإشارة فى قوله : وهذا ، يعود للقرآن الكريم ، وقوله ومصدق ، صفة لكتاب .

وقوله : لسانا عربيا ، حال من الضمير فى مصدق الذى هو صفة للكتاب والضمير فى : لينذر ، يعود إلى الكتاب ، و : الذين ظلموا ، مفعوله .

أى : لينذر الكتاب الذين ظلموا . وقوله : وبشرى للحسنين ، فى محل نصب عطفا على محل : لينذر ، .

وقال - سبحانه - فى صفة هذا الكتاب : مصدق لسانا عربيا ، ولم يقل : مصدق لكتاب موسى ، للتنبيه على أنه مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب السماوية السابقة .

والتعبير بقوله : لسانا عربيا ، فيه تكريم للعرب ، وقد كبر لهم بنعمة الله عليهم ، حيث جعل القرآن الذى هو أجمع الكتب السماوية للهدايات والخيبرات بلسانهم ، وهذا يقتضى إيمانهم به ، وحرصهم على اتباع إرشاداته .

وقوله - تعالى - : لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ، بيان لوظيفة هذا الكتاب ، وتحديد لمصير كل فريق ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

ثم فصل - سبحانه - ما أعده للمحسنين من جزيل الثواب فقال : إن

الذين قالوا ربنا الله ... ، أى : قالوا ذلك بأنفسهم ، وصدقت هذا القول قلوبهم ، ثم استقاموا ، بعد ذلك على صراط الله المستقيم ، بأن فعلوا بإخلاص وطاعة كل ما أمرهم - سبحانه - بفعله ، واجتنبوا بقوة كل أمرهم بإجتنابه وقوله : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، خبر « إن » ، وجيء بالفاء فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط .

أى : إن الذين قالوا ذلك ، ثم استقاموا وثبتوا على طاعتنا ، فلا خوف عليهم من لحوق مكروه بهم ، ولا هم يحزنون بسبب فوات محبوب لديهم ، وإنما هم فى سعادة مستمرة ، وفى سرور دائم ، لا يعكره خوف من مستقبل مجهول ، ولا حزن على أمر قد مضى .

« أولئك » الموصوفون بما ذكر من الإيمان والاستقامة ، هم أصحاب الجنة خالدين فيها ، مخلوداً أبدياً .

« جزاء بما كانوا يعملون » ، أى : يحزن هذا الجزاء الطيب بسبب أعمالهم الصالحة ، التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

• • •

وبعد هذا الحديث عن حقيقة هذا الدين ، وعن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، جاء الحديث عن وجوب الإحسان إلى الوالدين وعما يترتب عليه هذا الإحسان من ثواب عظيم ، قال - تعالى - :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّى إِذَا أَشَدُّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) » .

قال الإمام ابن كثير : لما ذكر - تعالى - في الآية الأولى التوحيد له ، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف ، بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن ، كقوله : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » ، وقال : « أن اشكر لى ولو الديك إلى المصير » ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ... » ، من الإيصال بالشئ بمعنى الأمر به .

قال - تعالى - : « وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، أى : أمرنى بالمحافظة على أدائهما . . »

وقوله : « إحسانا » ، قراءة عاصم وحفصة والكسائى . وقرأ غيرهم من بقية السبعة « حسنا » ، وعلى القراءتين فانتصابهما على المصدرية . أى : ووصينا الإنسان وأمرناه بأن يحسن إلى والديه إحسانا أو حسنا ، بأن يقدم إليهما كل ما يؤدى إلى برهما وإكرامهما . .

ويصح أن يكون وصينا بمعنى الزمنا ، فيتعدى لاثنتين ، فيكون المفعول الثانى منهما ، قوله : « إحسانا » ، أو « حسنا » .

وقوله - سبحانه - : « حملته أمه كرها ووضعته كرها » ، تعليل الإيصال المذكور ولفظ « كرها » ، قرئ - بضم الكاف وفتحها ، وهما قراءتان سبعيتان ، قالوا : ومضاهما واحد كالضعف - بتشديد الضاد وفتحها أو ضمها - فهما لغتان بمعنى واحد .

وهذا اللفظ منصوب على الحال من الفاعل . أى : حمله أمه ذات كره ، ووضعته ذات كره . أو هو صفة لمصدر مقدر ، أى : حملته حملا ذا كره ، ووضعته كذلك .

ولا شك في أن الأم تعاني في أثناء حملها ووضعها لوليدها . الكثير من المشاق والآلام والمتاعب ... فكان من الوفاء أن يقابل ذلك منها بالإحسان والإكرام .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - في آية أخرى : « حملته أمه وهنا على وهن ... » (١) .

أى : حملته أمه ضعفا على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها ، ازداد ضعفها ...

وقوله - تعالى - : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ، بيان لمدة الحمل والقطام ، والكلام على حذف مضاف . والفصال : مصدر فاصل ، وهو بمعنى القطام ، وسمى القطام فصلا ، لأن الطفل ينفصل عن ثدى أمه في نهاية مدة الرضاع .
أى : ومدة حمل الطفل مع مدة فصاله عن ثدى أمه ، ثلاثون شهرا .
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المراد ببيان مدة الرضاع لا القطام ، فكيف عبر عنه بالفصام ؟

قلت : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهى به ويتم ، مسمى فصلا .. وفيه فائدة ، وهى الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته ... » (٢) .

وقال الشوكاني : وقد استدل بهذه الآية على أن « قل » للحمل ستة أشهر ، لأن مدة الرضاع سنتان . أى : مدة الرضاع الكامل ، كما فى قوله - تعالى - :
« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » ،
فذكر - سبحانه - فى هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم ، أكدر من حق الأب ، لأنها هى

(١) سورة لقمان . الآية ١٤

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٠٢

التي حملت وليدها بمشقة ووضعت بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ... (١) .

وقوله - تعالى - : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ... » ، غاية المحذوف يفهم من سياق الكلام .

والأشد : قوة الإنسان واشتغال حرارته ، من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ، ولا واحده من لفظه .

والمراد ببلوغ أشده : أن يصل سنه على الراجح - إلى ثلاث وثلاثين سنة . وقوله : « أوزعني ، أي : رغبتني ووفقني ، من قولك : أوزعت فلانا بكذا ، إذا أغريته وحبيته في فعله .

أي : أن هذا الإنسان بعد أن بقي في بطن أمه مابق ، وبعد أن وضعته وأرضعته وفطمته وتولته برعايتها ، واستمرت حياته ، حتى إذا بلغ أشده ، أي : حتى إذا بلغ زمن استكمال قوته ، وبلغ أربعين سنة وهي تمام اكتمال العقل والقوة والقوة ...

« قال ، على سبيل الشكر لخالقه ، رب أوزعني ... » ، أي : يارب وفقني وألهمني ، أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، بأن وفقني ووفقتهما إلى صراطك المستقيم ، وبأن رزقتهما العطف على ، ورزقني الشكر لهما ووفقني - أيضا - « أن أعمل عملا صالحا ترضاه ، مني ، وتقبله عندك » وأصلح لي في ذريتي ، أي : واجعل - يا إلهي - الصلاح راسخا في ذريتي ، وساريا فيها ، لأن صلاح الذرية فيه السعادة الفاعرة للأباء .

« إني تبت إليك ، توبة صادقة نصوحا » وإني من المسلمين الذين أخلصوا

نفوسهم لطاعتك ، وقلوبهم لمرضاتك .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد اشتملت على أسنى ألوان الدعوات ،
التي عن طريق إجابتها تتحقق السعادة الدنيوية والآخرية .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى د في ، في قوله : د وأصلح لي
في ذريتي ، ؟

قلت : معناه : أن يجعل ذريته موقعا للصلاح ومظنته ، كأنه قال : هب لي
الصلاح في ذريتي ، وأوقعه فيهم ... ، (١)

وفي الآية الكريمة : تنبيه للعقلاء ، إلى أن شأنهم - خصوصا عند بلوغ
سن الأربعين . أن يكثرُوا من التضرع إلى الله بالدعاء ، وأن يتزودوا بالعمل
الصالح ، فإنها السن التي بعث الله - تعالى - فيها معظم الأنبياء ، والتي فيها
يكتمل العقل ، وتستجمع القوة ، ويرسخ فيها خلق الإنسان الذي تعودده وألفه
ورحمه الله القائل .

إذا المروا في الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا متر
فدعه ، ولا تنفس عليه الذي مضى وإن جر أسباب الحياة العمر

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة من يسلك هذا الطريق القويم فقال :
« أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ... »

واسم الإشارة يعود إلى الإنسان باعتبار الجنس . أي : أولئك
الموصوفون بما ذكر من الصفات الجميلة ، هم الذين نتقبل عنهم أحسن
ما عملوا ، من الأعمال الطيبة المتقبلة عندنا ...

« وتجاوز عن سيئاتهم » فلا نعاقبهم عليها ، لكثرة توبتهم إلينا ... بل
نعملهم د في ، عداد أصحاب الجنة ، الخالدين فيها ، والمتنعمين بخيراتها .

فالجار والمجرور في قوله « أصحاب الجنة » في محل نصب على الحال ، على سبيل التشريف والتكريم ، كما تقول : أكرم في الأمير في أصحابه ، أى : حالة كوني معرودا من أصحابه .

وقوله - تعالى - : « وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » ، تذييل مؤكد لما قبله . ولفظ « وعد » ، مصدر لفعل مقدر

أى : وعدم الله - تعالى - وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسنة الرسل فى الدنيا .

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأسلم أبواه وأولاده جميعا (١)

وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الصورة الوضيئة لأصحاب الجنة ، أتبع ذلك ببيان صورة سيئة لنوع آخر من الناس ، فقال - تعالى - :

« والذى قال لوالديه أف لكما ، أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ويلك آمين ، إن وعد الله حق » فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين (١٧) أولئك الذين حق عليهم القول فى أمر قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين (١٨) ولكل درجات مما عملوا ، وليوفىهم أعمالهم وهم لا يظلمون (١٩) ويوم يمرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم

طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَفْسُقُونَ (٢٠) .

والإسم الموصول في قوله - تعالى - : « والذي قال لوالديه أف لكما ... »
بمعنى الذين ، وهو مبتدأ وخبره قوله : « مولئك الذين حق عليهم القول ... »
وهذا صريح في أن المراد بقوله : « والذي ، العموم وليس الأفراد ، وهذا
يدل - أيضا - على فساد قول من قال إن الآية نزلت في شأن عبد الرحمن بن
أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - ، والصحيح أنها في حق كل كافر عاق
لوالديه ، منكر للبعث .

قا ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن
زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقوله ضعيف ، لأن عبد الرحمن
أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه :

أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز
استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطب وجهه ليذكر يزيد بن معاوية لكي
يباع له بعد أبيه .

فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا ... فقال مروان : إن هذا الذي
أنزل فيه : « والذي قال لوالديه أف لكما ... » ،

فقلت عائشة من وراء حجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن
الله أنزل عذري .

وفي رواية للنسائي أنها قالت : كذب مروان . والله ما هو به ، ولو شئت
أن أسمي الذي نزل فيه لسميته ... ، (١)

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٦٦ والالوسي ج ٢٦ ص ٢٠

ولفظ « أف » : اسم صوت ينبىء عن الضجر ، أو اسم فعل مضارع هو
أَنْضَجِر .

والمقصود به هنا : إظهار الملل والتأفف والكراهية لما يقوله أبواه من
نصح له .

وقوله : « أتعذاني » فعل مضارع من وعد الماضي ، وخذف واؤه في
المضارع مطرد .

والنون الأولى نون الرفع ، والثانية نون الوقاية .

وقوله : « أن أخرج » : أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر هو المفعول
الثاني لقوله : « أتعذاني » .

أى : والذي قال لوالديه - على سبيل الإنكار والإعراض عن نصحهما -
« أف لكما ، أى : أقول بعدا وكرها لقولكما . أو إني متضجر من قولكما » .

« أتعذاني أن أخرج » أى : أتعذاني الخروج من قبرى بعد أن أموت ،
لكى أبعث وأحاسب على عملى ، والحال أنه « قد دخلت » أى : مضت « القرون »
الكثيرة « من قبلى » دون أن يخرج أحد منهم من قبره ، ودون أن يرجع
بعد أن مات .

فآلية السكرامة تصور بوضوح ما كان عليه هذا الإنسان ، من سوء أدب
مع أبويه ، ومن إنكار صريح للبعث والحساب والجزاء .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الأبوان فقال : « وهما يستغيثان الله ويطلب
آمن . إن وعد الله حق . . . » .

وقوله : « يستغيثان الله » أى : يلتمسان غوثه وعونه فى هداية هذا
الإنسان إلى الصراط المستقيم والجملة فى محل نصب على الحال .

ولفظ « ويطلب » فى الأصل ، يقال فى الدعاء على شخص بالهلاك

والتهديد . والمراد به هنا : حضن المخاطب على الإيمان والطاعة لله رب العالمين .

أى : هذا هو حال الإنسان العاق الجاحد ، أما حال أبواه ، فإنهما يفرعان لما قاله وترتعش أفئدتهم لهذا التطاول والصدود عن الحق ، فيلجآن إلى الله ، ويتمسكان منه - سبحانه - الهداية لإنهما ، ويحضان هذا الابن على الإيمان بوحدايته الله - تعالى - ، وبالبعث والحساب والجزاء . فيقولان له : . وبلك آمن إن وعد الله حق ، ولا خلف فيه ، ولا راد له ..

والمتمثل في هذه الجملة الكريمة يراها تصور لطيفة الوالدین على إيمان ولدهما أكمل تصوير ، فهما يتمسكان من الله له الهداية ، ثم يهتفان بهذا الابن العاق بفرع أن يترك هذا الجمود ، وأن يبادر إلى الإيمان بالحق ..

ولسكن الابن العاق يصر على كفره ، ويلاج في جحوده : . فيقول ، في الرد على أبويه : ما هذا إلا أساطير الأولين . .

أى : ما هذا الذى تعدائنى إياه من البعث والحساب والجزاء .. إلا أباطيل الأولين وخرافاتهم التى سطرها فى كتبهم ،

فالأساطير : جمع أسطورة ، وهى ما سجله الأقدمون فى كتبهم من خرافات وأكاذيب .

وقوله : . أولئك .. اسم الإشارة هذا يعود إلى العقاقين المكذبين بالبعث والجزاء ، المذكورين فى قوله - تعالى - قبل ذلك : . والذى قال لو لاديه أف لكما ..

أى : أولئك القائلون ذلك ، هم الذين حق عليهم القول ، أى : وجب عليهم العذاب الذى حكم به - سبحانه - على أمثالهم فى قوله - تعالى - لإبليس . لا ملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ، كإفئدة قوله - سبحانه - بعد ذلك .

« في أمم قد خلعت من قبلهم من الجن والإنس » .

أى : أولئك الذين وجب عليهم العذاب ، حالة كونهم مندرجين في أمم قد مضت من قبلهم من طائفة الجن ومن طائفة الإنس ، لأنهم جميعاً ، كانوا خاسرين ، لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان .

ثم بين - سبحانه - مظاهراً من مظاهر عدالته في حكمه بين عباده فقال :
« ولكل درجات مما عملوا » . وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

والتنوين في قوله « ولكل » عوض عن المضاف إليه المحذوف والجار والمجرور في قوله « مما عملوا » صفة لقوله « درجات » ، و « من » ، بيانية ، و « ما » ، موصولة .

وقوله : « وليوفيهم أعمالهم » علة المحذوف ..

والمعنى : ولكل فريق من الفريقين : فريق المؤمنين المعبر عنهم بقوله :
« تعالى » ، أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا .. ، وفريق الكافرين المعبر عنهم بقوله - تعالى - : « أولئك الذين حق عليهم القول » ..

لكل فريق من هؤلاء وهؤلاء ، درجات ، حاصلة من الذي عملوه من الخير والشر ، وقد فعل - سبحانه - ذلك معهم ، ليوفيهم جزاء أعمالهم .

« وهم » جميعاً ، لا يظلمون ، شيئاً ، بل كل فريق منهم يجازى على حسب عمله . كما قال - تعالى - : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ثم بين - سبحانه - ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حال سيئة فقال : « ويوم يمرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » ..

والظرف متعلق بمحذوف تقديره : اذكر . وقوله « يمرض » من المرض بمعنى الوقوف على الشيء ، وتلقى ما يترتب على هذا الوقوف على هذا الشيء من خير أو شر .

والمراد بالعرض على النار هنا : مباشرة عذابها ، وإلقائهم فيها ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هذا بالحق ، قالوا : بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . »

قال الألوسي : قوله : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، »

أى : يعذبون بها من قولهم : عرض بنو فلان على السيف ، إذا قتلوا به ، وهو مجاز شائع .. ،^(١)

وقوله : « أذهبتم .. ألح » ، مقول لقول محذوف . وهذا اللفظ قرأه ابن كثير وابن عامر ، أذهبتم ، بهمزتين على الاستفهام الذى هو للتقريع والنوبيخ وقرأ الجمهور « أذهبتم » ، بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتنهض ، يوم يقف الذين كفروا على النار ، فيرون سميرها ثم يلقون فيها ، ويقال لهم - على سبيل الزجر والتأنيب - « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، أى : ضيعتم وأنفستم الطيبات التى أنعم الله بها عليكم فى حياتكم الدنيا ، حيث « استمتعتم بها » استمتعاً دنيوياً دون أن تدخروا للآخرة منها شيئاً .. »

« فاليوم تجزون عذاب الهون ، أى : تجزون عذاب الهوان والخزى والذل . »

« بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، أى : بسبب استكباركم فى الأرض بغير الحق .. »

« وبما كنتم تفسقون ، أى : بسبب خروجكم فى الدنيا عن طاعة الله - تعالى - ، وعن هدى أنبيائه . »

وقيد - سبحانه - استكبارهم في الأرض بكونه بغير الحق ، ليسجل عليهم هذه الرذيلة ، وليبين أنهم قوم ديدنهم التكبر والغرور وإثارة أقباع الباطل على الحق .

قال الجمل : والحاصل أنه - تعالى - علل ذلك العذاب بأمرين : أحدهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب .

والثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثاني . لأن أحوال القلب أعظم وقعا من أعمال الجوارح (١) .

• • •

ثم انتقلت السورة المكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مصارع الغابرين الذين كانوا أشد قوة وأكثر جمعا من مشركي قريش ، لكي يعتبروا بهم ، ويقطعوا عن كفرهم . حتى لا يكون مصيرهم كصير من سبقوهم في الكفر والظن ، فقال - سبحانه - .

« واذكر أخا عادٍ إن أنذر قومَه بالأحْقَافِ وقد خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لَتَأْفِكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلَسْتُ بِأَرَأَى أَنْ تَهْتَكُوا عَهْدِي ، فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مِّمَّنْ مَطْرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا

إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ، وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُ اللَّهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) .

والمقصود بقوله - تعالى - : أخا عاد ، : هود - عليه السلام ، فقد أرسله الله - تعالى - إلى قبيلة عاد ، يأمرهم بعبادة الله - تعالى - ، وكانوا قومًا جبارين فلم يستمعوا إلى نصحه ، فكانت عاقبتهم الهلاك والتدمير .

وقد وردت قصته معهم في سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة الحاقة ...

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « واذكر أخا عاد ، هو هود ابن عبد الله بن رباح ، كان أحام في النسب لا في الدين ، إذ أنذر قومه بالآحقاف ، والآحقاف : ديار عاد ... وهي جمع حقف - بكسر الحاء - ، وهو ما استطل من الرمل العظيم واعوج ، ولم يبلغ أن يكون جبلا ... » (١) . ويغلب على الظن أن مساكنهم كانت على مرتفعات من الأرض في شمال حضرموت ، وعلى مقربة من المكان الذي يسمى الآن بالربع الخالي غربي عمان .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليتوبوا ويتعظوا ، قصة هود - عليه السلام ، وقت أن أنذر قومه ، وهم يعيشون بترك الآماكن المرتفعة المسماة بالآحقاف .

وقوله : « وقد خلت الرسل من بين يديه ومن خلفه ، جملة حالية في محل نصب .

أى : جاء هود إلى قومه فأمرهم بإخلاص العباداة لله - تعالى - وحده ، وخوفهم من سوء عاقبة مخالفته ، والحال أنه قد أخبرهم بأن الرسل الذين سبقوه ، والذين يأتون من بعده ، كليهم قد بعثهم الله - تعالى - لهداية أقوامهم ، ولعبادته - سبحانه - وحده .

فالنذر : جمع نذير ، والمراد بهم الرسل الذين يخوفون أقوامهم من سوء عاقبة الإشراف مع الله - تعالى - آلهة أخوى في العبادة .

والمراد بقوله : « من يديه ومن خلفه » ، الرسل السابقون عليه ، والمتأخرون عنه .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من نصائح هود لقومه فقال : « أن لا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

أى : أنذركم قاتلاً لهم : إني أحذركم من عبادة أحد سوى الله - تعالى - وأمركم بإخلاص العباداة له - تعالى - وحده ، لأننى أخاف عليكم عذاب يوم هائل عظيم ، وهو يوم القيامة ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » .

فأنت ترى أن هوداً - عليه السلام - بجانب أنه قد أمر قومه بما يسعدهم ، فإنه قد بين لهم - أيضاً - ، أنه ما حمله على هذا الأمر إلا خوفه عليهم ، وحرصه على نجاتهم من عذاب يوم القيامة .

ولكن قومه لم يقابلوا ذلك بالطاعة والإذعان ، بل قابلوا دعوة نبيهم لهم بالإعراض والاستخفاف ، وقد حكى القرآن ذلك بقوله : « قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلہتنا ، فأننا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

أى : قال قوم هود له - على سبيل الإنكار والسفاهة - أجئتنا بهذه الدعوة

« لتأفكنا عن آلهتنا ، أى : لتصرفنا وتبعدنا عن عبادة آلهتنا التى أنعمنا بعبادتها .
يقال : أفك فلان فلانا عن الشيء ، إذا صرفه عنه .

ثم أضافوا إلى هذا الإنكار ، إنكار آخر مصحوبا بالتحدى والاستهزاء
فقالوا : « فأتنا بما تعدنا . .

أى : إن كان الأمر كما تقول فأتنا بما تعدنا به من العذاب العظيم ، « إن
كنت من الصادقين ، فيما أخبرتنا به .

وهكذا نلّس فى ردهم سوء الظن ، وعدم الفهم ، واستعجال العذاب ،
والإصرار على الباطل الذى ألفوه . .

ولكن هودا - عليه السلام - قابل كل هذه الجهالات بالحلم والأناة ، فرد
عليهم بقوله : « قال إنما العلم عند الله . .

أى : قال لهم : إنما علم وقت نزول العذاب بكم عند الله - تعالى - وحده
ولا مدخل لى فى ذلك .

ولما أنا ، أبلغكم ما أرسلت به ، إليكم من ربى وربكم ، وتلك هى وظيفتى ..
ثم عقب على هذا الرد بما يدل على حقهم وغيابهم فقال : « ولكنى أراكم
قوما تجهلون ، .

أى : أفا لا علم لى بوقت نزول العذاب عليكم ، لأن رسالتى محصورة فى
التبليغ والإنذار . .

وهذا كان يجب أن يكون مفهوما لديكم لوضوحه .. ولكنى أراكم قوما
تجهلون ما هو واضح ، وتنكرون ما هو حق ، وتصرون على ما هو باطل ،
وتطالبوننى بما لا أملكه . .

ثم يحمل السياق بعد ذلك ما كان بين هود وقومه من جدال طويل ،
ليصل إلى العذاب الذى استعجلوه فيقول : « فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم

قالوا هذا عارض ممطرنا ... والفاء في قوله « فلما رأوه ... » فصيحة .
والضمير في قوله « رأوه » يعود إلى « ما » في قوله - تعالى - قبل ذلك :
« فأتنا بما تعدنا » والمراد به العذاب .

قال الشوكاني : الضمير في « رأوه » يرجع إلى « ما » في قوله « بما تعدنا » .
وقال المبرد والزجاج : الضمير في « رأوه » يعود إلى غير مذكور ، وبينه
قوله « عارضنا » ، فالضمير يعود إلى السحاب .

أي . فلما رأوا السحاب عارضا ، فعارضنا نصب على التكرير ، أي : التفسير .
وسمى السحاب عارضا لأنه يبدو في عرض السماء . قال الجوهرى : العارض
السحاب يعترض في الأفق ... (١) .

والمعنى : وأتى العذاب الذى استعجله قوم هود لإلهم ، فلما رأوه بأعينهم ،
متمثلا في سحاب يظهر في أفق السماء « ومتجها نحو أوديتهم ومساكنهم » .
« قالوا ، وهم يجهلون أنه العذاب الذى استعجلوه » هذا عارض ممطرنا ،
أي : هذا سحاب تنتظر من ورائه المطر الذى ينفعنا ...

قيل : لأنها حبس عنهم المطر لفترة طويلة ، فلما رأوا السحاب في أفق السماء ،
استبشروا وفرحوا وقالوا : « هذا عارض ممطرنا » .

وهنا جاءهم الرد على لسان هود بأمر ربه ، فقال لهم : « بل هو ما استعجلتم
به ، ريح فيها عذاب أليم ... »

أي : قال لهم هود - عليه السلام - ليس الأمر كما توقعت من أن هذا
العارض سحاب تنزل منه الأمطار عليكم ، بل الحق أن هذا العارض هو العذاب
الذى استعجلتم نزله ، وهو يتمثل في ريح عظيمة تحمل العذاب المهلك الأليم لكم .
فقوله : « ريح » ، يصح أن يكون بدلا من « ما » أو من « هو » في قوله « بل
هو ما استعجلتم به » ، كما يصح أن يكون خير المبتدأ محذوف ، وجملة « فيها
عذاب أليم » صفة لقوله : « ريح » .

ثم وصف - سبحانه - هذه الريح بصفة أخرى فقال : « تدمر كل شيء بأمر ربها ... » .

أى : هذه الريح التى أرسلها الله - تعالى - عليهم ، من صفاتها أنها تدمر وتهلك كل شيء . مرت به يتعلق هؤلاء الظالمين من نفس أو مال أو غيرهما .
« التعبير بقوله : « بأمر ربها » ، لبيان أنها لم تأتهم من ذاتها ، وإنما أتتهم بأمر الله - تعالى - وبقضائه وبمشيئته .

والفاء فى قوله : « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » ، فصيحة - أيضا - .
أى : هذه الريح أرسلناها عليهم فدمرتهم ، فصار الناظر إليهم لا يرى شيئا من آثارهم سوى مساكنهم ، لتكون هذه المساكن عبرة لغيرهم

قال الجمل : وقوله : « لا يرى إلا مساكنهم » قرأ حمزة وعاصم « لا يرى » بضم الياء على البناء للمفعول ، ومساكنهم بالرفع لقيامه مقام الفاعل . والباقون من السبعة بفتح تاء الخطاب ، - على البناء للفاعل - ، مساكنهم بالنصب على أنه مفعول به ،^(١) .

وقوله : « كذلك نجزي القوم المجرمين » ، أى : مثل ذلك الجزاء المهلك المدمر ، نجازى القوم الذين من دأبهم الإجرام والطفيان .

وهكذا طوى - سبحانه - صفحة أولئك الظالمين من قوم هود - عليه السلام - وما ظلمهم - سبحانه - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ولم تكتف السورة الكريمة بعرض مصارع هؤلاء المجرمين ، الذين لا ينجى أمرهم على المشركين المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، بل أخذت فى تذكير هؤلاء المشركين ، مما يحملهم على الزيادة من العظا والعبرة لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلناهم سماعا وأبصارا وأفئدة ... » .

وَمَا، فِي قَوْلِهِ : «فَمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، مَوْصُولَةٌ . وَ «إِنْ» ، نَافِيَةٌ . أَيْ :
وَاللَّهُ لَقَدْ مَكَّنَّا قَوْمَ هُودٍ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ عَلَيْكُمْ - يَا أَهْلَ مَكَّةَ -
فِي الَّذِي لَمْ نَمَكِّنْكُمْ فِيهِ ، بِأَنْ جَعَلْنَاهُمْ أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ جَمْعًا ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ
مِنْ فَضْلِنَا أَسْمَاعًا وَأَبْصَارًا وَآفَئِدَةً .

فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقِينَ ، أَعْطَاهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْقُوَّةِ ... أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ الْكَافِرِينَ الْمُعَاَصِرِينَ لِلنَّبِيِّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الطَّغَاةُ السَّابِقِينَ لَمَّا لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ - تَعَالَى - عَلَى نِعْمِهِ كَانَتْ
عَاقِبَتُهُمُ الْهَلَاكُ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ - سُبْحَانَهُ - بَعْدَ ذَلِكَ : «فَمَا أَضْنَى عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ...» ،

أَيْ : أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ مَا لَمْ نَعْطِكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَشْكُرُونَا
عَلَى نِعْمَتِنَا ، وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا فِي طَاعَتِنَا ، أَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، دُونَ أَنْ
تَنْفَعَهُمْ شَيْئًا أَسْمَاعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ ، حِينَ نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُنَا ، بَلْ كُلُّ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قُوَّةٍ مِمَّنْ نَعْمَ ذَهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيحِ وَصَارَ مَعَهُمْ هَبَاءٌ
مُنْثُورًا .

وَمِنْ ، فِي قَوْلِهِ . «مِنْ شَيْءٍ» ، لِتَأْكِيدِ عَدَمِ الْإِغْنَاءِ . أَيْ : مَا أَغْنَتْ
عَنْهُمْ شَيْئًا حَتَّى وَلَوْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ - سُبْحَانَهُ - أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ دَمَارٍ كَانَ بِسَبَبِ جُحُودِهِمْ لِلْحَقِّ
وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِ ، فَقَالَ : «لِذَا كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» .

أَيْ : هَذَا الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ الَّذِي حَاقَ بِهِمْ ، كَانَ بِسَبَبِ جُحُودِهِمْ لِآيَاتِ اللَّهِ
الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَكَيْالِ قُدْرَتِهِ ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ
مِنَ الْحَقِّ .

ومن الآيات القرآنية التي وردت في هذا المعنى ، قوله - تعالى - :
 « فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا رَمَضْنَا مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ، (١) » .

وقوله - سبحانه - : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ . فَاغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، (٢) » .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التذكير والتخويف للمشركين ، تذكيراً وتخويفاً آخر ، فقال : « وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ، أَي ، والله لقد أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ يَا أَهْلَ عَمَكِ مِنَ الْقُرَى الظَّالِمَةِ ، كَهَؤُلَاءِ هُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ » .

« وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ ، أَي : كررناها ونوعناها بأساليب مختلفة » ، لهم يرجعون » عما كانوا عليه من الشرك والفجور ، « وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ وَبُغْيٍ . فدمرناهم تدميراً . » .

« فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، أَي : فلو أنهم من الهلاك . هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا يتقربون بهم إليه - سبحانه - ، كما قالوا : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

فلولا هنا حرف تخصيص بمعنى « هلا . والمفعول الأول لا يتخذوا محذوف أي : الذين اتخذوهم ، وآلهة هو المفعول الثاني . وقرباناً حال . وهو كل ما يتقرب به إلى الله - تعالى - من طاعة أو نسل ، والجمع قرابين . »

وقوله - تعالى - : « بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْسَاكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ، لإضراب انتقالاً عن نفي النصرة إلى ما هو أشد من ذلك . »

(١) سورة الزخرف الآية ٨ .

(٢) سورة غافر الآية ٨٢ .

أى : أن هؤلاء الآلهة لم يكتفوا بعدم نصر أولئك الكافرين ، بل غابوا عنهم وتركوهم وحدهم ، ولم يحضروا إليهم . . . وذلك الغياب الذى حدث من آلهتهم عنهم ، مظهر من مظاهر كذب هؤلاء الكافرين وافتراءهم على الحق فى الدنيا ، حيث زعموا أن هذه الآلهة الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . . . ، وهام اليوم لا يرون آلهتهم ، ولا يجدون لهم شيئاً من النفع .

• • •

وبعد هذا التذكير والوعيد للكافرين ، بين - سبحانه - جانباً من مظاهر تكريمه لنبىه - صلى الله عليه وسلم - حيث أرسل له نفراً من الجن ، يستمعون القرآن ، ويؤمنون به ، فقال - تعالى - :

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَنْقُزْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) » .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ . . . » ، هذا توبيخ لمشركي قريش . أى : إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله ، وأنهم معرضون مصرون على الكفر . . .

قال المفسرون : لما مات أبو طالب . خرج النبي - صلى الله عليه وسلم -

إلى الطائف ، يلتبس من أهلها النصره ، ويدعوم إلى الإيمان . . . فأغروا به سفهاءهم وعبيدكم يسبونونه ويضحكون به . . .

فانصرف - صلى الله عليه وسلم - عنهم . حتى إذا كان بيطن نخلة - وهو موضع بين مكة والطائف - قام يصلي من الليل ، فر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب الشام . . . فاستمعوا إليه وقالوا : أنصتوا . . . (١) ،

وهناك روايات أخرى كثيرة في عدد هؤلاء الجن ، وفي الأماكن التي التقوا فيها مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيما قرأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، وفيمن كان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - خلال التقائه بهم . . . (٢) .

ويبدو لنا من مجموع هذه الروايات أن إلقاء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالجن قد تعدد ، وأن هذه الآيات تحكي لقاء معيناً ، وسورة الجن تحكي لقاء آخر .

قال الآلوسی : وقد أخرج الطبرانی في الأوسط ، وابن مردويه عن الحبر : أي : عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرتين .

وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث ، على أن وفادة الجن كانت متكررات ، ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم ، وفي غير ذلك ، (٣) .

و النفر ، على المشهور - ما بين الثلاثة والشرة من الرجال ، وهو مأخوذ من النفير لأن الرجل إذا حز به أمر نفر بعض الناس الذين يهتمون بأمره لإغاثنه .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢١٠ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة دار الشعب .

(٣) راجع تفسير الآلوسی ج ٢٦ ص ٣٠ .

والمعنى : وأذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ، وقت أن صرفنا إليك ، ووجهنا نحوك ، نقرأ من الجن ، يستمعون القرآن منك .

« فلما حضروه ، أي : فحين حضروا القرآن عند تلاوته منك ، أو حين حضروا مجلسك ، قالوا ، على سبيل التناصح - « أنصتوا ، أي : قال بعضهم لبعض : اسكتوا لأجل أن نستمع إلى هذا القرآن ، وهذا يدل على سمو أدبهم وحرصهم على تلقي العلم .

« فلما قضى ، أي : فحين انتهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قراءته .

« ولوا إلى قومهم منذرين ، أي : انصرفوا إلى قومهم لينخوفوهم من عذاب الله تعالى - ، إذا ما عصوه أو خالفوا أمره - سبحانه .

« قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى أي : وبعد أن انصرفوا إلى قومهم منذرين ، ووصلوا إليهم ، قالوا لهم : يا قومنا إنا سمعنا كتابا عظيم الشأن ، جليل القدر ، أنزل من بعد نبي الله - تعالى - موسى - عليه السلام - .

وهذا الكتاب ، مصدقا لما بين يديه ، أي : مصدقا لما قبله من الكتب وهو - أيضا - يهدي إلى الحق ، الذي لا يحوم حوله الباطل ، ويهدي - أيضا - إلى طريق مستقيم ، أي : إلى طريق قويم واضح يصل باتباعه إلى السعادة .

« قال الألوسي : قوله : « أنزل من بعد موسى ، ذكره دون عيسى - عليهما السلام - لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين ، ولأن الكتاب المنزل عليه أجل الكتب قبل القرآن ، وكان عيسى مأمورا بالعمل بمعظم ما فيه أو ب كله .

« وقال عطاء : لأنهم كانوا على اليهودية . وهذا القول يحتاج إلى نقل

وعن ابن عباس : أن الجن لم تكن سمعت بعيسى ، فلذا قالوا ذلك . وفي هذا القول بعد ، فإن اشتهار أمر عيسى ، وانتشار أمر دينه ، أظهر من أن يخفى ، لاسيما على الجن ، ومن هنا قال أبو حيان : إن هذا لا يصح عن ابن عباس ، (١)

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على إيمانهم بما سمعوه فقال : يا قومنا أجيئوا داعى الله ... ،

أى : وقالوا لقومهم - أيضا - : يا قومنا أجيئوا داعى الله الذى دعاكم إلى الحق وإلى طريق مستقيم . وآمنوا به ، أى : وآمنوا بهذا الرسول الكريم وبما جاء من عنده .

د يغفر لكم من ذنوبكم ، أى : أجيئوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم ربكم من ذنوبكم التى وقعتم فيها ، ويبعدكم بفضله ورحمته من عذاب اليم .

والتعبير بقوله : د من ذنوبكم ، يدل على حسن أديهم ، وعلى أنهم يفوضون المغفرة إلى ربهم ، فهو - سبحانه - إن شاء غارها جميعا ، وإن شاء غفر بعضها ثم ختموا الترغيب فى الإيمان بالترهيب من الإصرار على الكفر والمعاصى فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : د ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض . .

أى : قالوا لقومهم إنكم إذا أجبتم داعى الله ، غفر لكم - سبحانه - ذنوبكم أما الذى يعرض عن هذا الداعى الصادق الأمين ، فإنه لن يستطيع أن يفلت من عذاب الله ، ولن يقدر على الهرب من عقابه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه نىء ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

د ليس له من دونه من أولياء ، أى : وليس لهذا الممرض من أنصار يستطيعون دفع عذاب الله عنه .

أولئك، أى : الذين لم يجيبوا داعى الله ، فى ضلال مبين . أى : فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات .

١ - أن رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به - صلى الله عليه وسلم - ، ودعوتهم غيرهم إلى الإيمان به .

٢ - أن هذه الآيات تدل على أن حكم الجن كحكم الإنس فى الثواب والعقاب وفى وجوب العمل بما أمرهم الله - تعالى - به ، وفى وجوب الإلتزام عما نهى الله عنه ، لأن قوله - تعالى - : « يا قومنا أجبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين »

أقول : هاتان الآيتان اللتان حكاهما الله - تعالى - على السنة ببعض الجن تدلان على ثواب المطيع ، وعذاب العاصى .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة وهى

قوله - تعالى - فى سورة الرحمن : « ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ، .

ويستأنس لهذا - أيضا - بقوله - تعالى - : « لم يطعمهن إنس قبلهم ولا جان » فإنه يشير إلى أن فى الجنة جنات يطعمون النساء كالإنس

وهذا يعلم أن ما ذهب إليه بعض العلماء . أنهم يفهم من قوله - تعالى - : « يا قومنا أجبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم » أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم ، وإيمانهم

داعى الله ، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط . . . هذا الفهم إنما هو خلاف التحقيق ، وأن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتوبيخ المشركين على جملهم وعدم تفكيرهم ، وبين ما سيكونون عليه من خزي يوم القيامة ، وأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على أذاهم . فقال :

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمْ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يَمْرُضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ، أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَوْمَ مَا يِوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) » .

والهمزة في قوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ . . . » للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام . . .

أى : أبلغ العمى والجهل هؤلاء الكافرين ، أنهم لم يروا ولم يعقلوا أن الله - تعالى - الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، ولم يعنى بخلقهم ، أى : ولم يتعب ولم ينصب بسبب خلقهم ، من قولهم عي فلان بالامر - كفرح - إذا تعب ، أو المعنى : إذا تعب ، أو المعنى : ولم يعجز عن خلقهم ولم يتحير فيه ، مأخوذ من قولهم : عي فلان بأمره ، إذا تحير ولم يعرف ماذا يفعله

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٤٠١ .

وقوله : ، بقادر على أن يحيي الموتى ، في محل رفع خبر ، أن ، ، والباء في قوله - تعالى - ، بقادر ، مزينة للتأكيد .

فالمقصود بالآية الكريمة توبيخ المشركين على جهلهم وانطباع بصائرهم ، حيث لم يعرفوا أن الله - تعالى - الذي أوجد الكون ، قادر على أن يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم .

وأورد القرآن ذلك في أسلوب الاستفهام الإنكارى ، ليكون تأنيبهم على جهلهم أشد .

وقوله : ، بلى إنه على كل شيء قدير ، تقرير وتأكيد لقدرة - تعالى - على إحياء الموتى ، لأن لفظ ، بلى ، يؤتى به في الجواب لإبطال النفي السابق ، وتقرير تقيده ، بخلاف لفظ ، نعم ، فإنه يقرر النفي نفسه .

أى : بلى إنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى . لأنه - تعالى - على كل شيء قدير .

ثم كرر - سبحانه - التذكير للناس بأحوال الكافرين يوم الحساب ليحسروا ويتمطوا فقال :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار ... ، أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يلقى الذين كفروا في النار ، بعد مشاهدتها ورؤيتها .. »

ثم يقال لهم على سبيل الزجر والتهكم ، أليس هذا بالحق ، أى : أليس هذا العذاب كنتم تنكرونه في الدنيا ، قد ثبت عليكم ثبوتاً لا مفر لكم منه ، ولا يحيد لكم عنه ..

« قالوا بلى وربنا ، أى : قالوا في الجواب : بلى يا ربنا إن هذا العذاب حق ، وإنكارنا له في الدنيا إنما كان عن جهل وغفلة وغرور منا ... »

فهم قد اعترفوا بأن الحساب حق ، والجزاء حق ... في وقت لا ينفع فيه الاعتراف .

ولذا جاء الرذ عليهم بقوله - تعالى - : « قال ، - سبحانه - فتذوقوا العذاب » أى : فتذوقوا طعمه الأليم ، ووقعه المهبين ، بما كنتم تكفرون ، أى : بسبب كفركم وجحودكم .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكريمة بأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على مكرم فقال : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل . . . » .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم ، فاصبر على أذى قومك ، كما صبر إخوانك أولوا العزم من الرسل ، أى : أصحاب الجود والثبات والصبر على الشدائد والبلاء . . . وهم - على أشهر الأقوال - نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم جميعا . .

وقوله : « ولا تستعجل لهم ، نهى منه - تعالى - لنبيه عن استعجال العذاب لهم . أى : ولا تستعجل لهم العذاب . فالمفهوم محذوف للعلم به .

ثم بين - سبحانه - ما يدعو إلى عدم الاستعجال فقال : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . . . » .

أى : اصبر - أيها الرسول - على أذى قومك كما صبر إخوانك أولوا العزم من الرسل ، ولا تستعجل العذاب لهؤلاء الكافرين فإنه آتيهم لا ريب فيه ، وكأنهم عندما يرون هذا العذاب ويحل بهم ، لم يلبثوا في الدنيا إلا وقتا قليلا وزمنا يسيرا ، لأن شدة هذا العذاب تنسيهم كل متع الدنيا وشهواتها .

وقوله - تعالى - « بلاغ ، خبر لمبتدأ محذوف أى : هذا الذى أوردكم به ، أو هذا القرآن ، بلاغ كاف في وعظكم وإنذاركم إذا تدبرتم فيه ، وتبليغ من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليكم .

« فهل يهلك القوم الفاسقون ، كلا ، إنه لا يهلك بعذاب الله - تعالى - إلا القوم الخارجون عن طاعته ، الواقعون في معصيته فالاستفهام للنفي » .

وبعد فهذا تفسير لسورة الاحقاف ، نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه
ونافعا لعباده ،

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ

الموافق ١٩٨٥/١١/٦ م
كتبه الراجى حضوره
د . محمد سيد طنطاوى

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ مُحَمَّدٍ
صلى الله عليه وسلم

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
معيد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - هذه السورة تسمى بسورة محمد - صلى الله عليه وسلم - لما فيها من الحديث عما أنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - وتسمى - أيضا - بسورة القتال ، لحديثها المستفيض عنه .

وهي من السور المدنية التي يغلب على الظن أن نزلها كان بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب ، وقد ذكروا أن نزلها كان بعد سورة الحديد ، (١) وعد آياتها أربعون آية في البصري ، وثمان وثلاثون في الكوفي ، وتسع وثلاثون في غيرهما .

٢ - وافتتح السورة الكريمة ببيان سوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، ثم تحض المؤمنين على الإغلاظ في قتال الكافرين ، وفي أخذهم أسارى ، وفي الإغلاء من منزلة المجاهدين في سبيل الله ...

قال - تعالى - : «الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم»

٣ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين وعدم فيه بالنصر متى نصره وتوعد بالكافرين بالتعاسة والخيبة ، ووبخهم على عدم اعتبارهم واتعاطهم ، كما بشر المؤمنين - أيضا - بحجة فيها ما فيها من نعم .

قال - تعالى - : «مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهر من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار

(١) راجع الإتيان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للسيوطي

من عمل مصفى ، ولهم فيها من كل الثرات ، ومغفرة من ربهم ، كن هو خالد في النار ، وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم . .

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن المنافقين ، فذكرت جانباً من مواقفهم السيئة من النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن دعوته ، ووبختهم على خداعهم وسوء أدبهم .

قال - تعالى - : « ومنهم من يستمع لإيالك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ... »

٥ - ثم صورت السورة الكريمة ما جبل عليه هؤلاء المنافقون من جبن و هلع ، وكيف أنهم عندما يدعون إلى القتال يصابون بالفرع الخالع .

قال - سبحانه - : « ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ... »

٦ - ويعدد أن بينت السورة الكريمة أن نفاق المنافقين كان بسبب استحواد الشيطان عليهم ، وتوعدتهم بسوء المصير في حياتهم وبعد مماتهم .

بعد كل ذلك أخبرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأوصافهم الذميمة ، فقال - تعالى - : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم »

٧ - ثم عادت السورة إلى الحديث عن الكافرين وعن المؤمنين ، فتوعدت الكافرين بحبوط أعمالهم . وأمرت المؤمنين بطاعة الله ورسوله . ونهتهم عن

اليأس والقنوط ، وبشرتهم بالنصر والظفر ، وحذرتهم من البخل ، ودعتهم إلى الإنفاق في سبيل الله .

قال - تعالى - : ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم . ثم لا يكونوا أمثالكم .

٨ - هذا والمتدبر في هذه السورة السكرية - بعد هذا العرض الإجمالي لها - يراها . تهتم بقضاياها من أهمها ما يأتي .

١ - تشجيع المؤمنين على الجهاد في سبيل الله - تعالى - وعلى ضرب رقاب الكافرين ، وأخذهم أسرى ، وكسر شوكتهم . وإذلال نفوسهم ... كل ذلك بأسلوب قد اشتمل على أسس ألوان التحريض على القتال .

نرى ذلك في قوله - تعالى - : : فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أخضعتهم فشدوا الوثاق ، فإما منابعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ...

وفي قوله - تعالى - : : يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ...

ب - بيان سوء عاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة . ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق ، وإبراز الأسباب التي حملتهم على الجحود والعناد ... نرى ذلك في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : : و كآين من قرية هي أشد قوة من قريكتي التي أخرجتك أهلها . كنههم فلا ناصر لهم . أفن كان على بينة من ربه كن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ...

ج - كشفها عن أحوال المنافقين وأوصافهم . بصورة تميزهم عن المؤمنين وتدعو كل عاقل إلى احتقارهم ونبذهم . بسبب خداعهم وكذبهم . وجبنهم واستهزائهم بتعاليم الإسلام .

ولقد توعدهم الله - تعالى - بأشد ألوان العذاب ، فقال : أولئك الذين
لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ... ،

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر -

الأحد ٢٥ / ٣ / ١٤٠٦ هـ

٨ / ١٢ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله تعالى : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، وَلِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) » .

افتتحت سورة القتال بهذا الذم الشديد للكافرين ، وبهذا الثناء العظيم على المؤمنين .

افتتحت بقوله - سبحانه - : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ . كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ... »

وقوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا ... » مبتدأ ، خبره قوله - سبحانه - : « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » .

والمراد بهم كفار قريش ، الذين أعرضوا عن الحق وحرصوا غيرهم على الإعراض عنه .

فقوله : « صَدُّوا » من الصد بمعنى المنع ، والمفعول محذوف .

وقوله : « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » ، أى : أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة ذاهبة لا أثر لها ولا وجود ، والمراد بهذه الأعمال : ما كانوا يعملونه فى الدنيا من عمل حسن ، كإكرام الضيف ، وبر الوالدين ، ومساعدة المحتاج ..

أى : الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، ومنعوا

غيرهم من اتباع الدين الحق الذي أمر الله - تعالى - باتباعه ، أضل - سبحانه - أعمالهم ، بأن جعلها ذاهبة ضائعة غير مقبولة عنده . كما قال - تعالى - : « وقد منّا إلى ما عملوا من عمل إلى عمل ليجعلناه هباء منثورا » (١)

قال صاحب الكشف : « أضل أعمالهم ، أى : أبطلها وأحبطها . وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كالضالة من الإبل ، التى هى مضية لا رب لها يحفظها ويعتنى بأمرها . أو جعلها ضالة فى كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها ، كما بضل الماء اللبس . وأعمالهم ما كانوا يعملونه فى كفرهم بما يسمونه مكارم : من صلة الأرحام ، وفك الأسرى . . . »

وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والصد عن سبيل الله ، بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله ، (٢)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعدّه للمؤمنين من ثواب فقال : « والذين آمنوا وعملوا بالأعمال الصالحات ، التى توافر فيها الإخلاص والاتباع لهدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - »

وقوله : « وآمنوا بما نزل على محمد ، من باب عطف الخاص على العام ، فقد أفردّه بالذكر مع أنه داخل فى الإيمان والعمل الصالح ، للإشارة إلى أنه شرط فى صحة الإيمان ، وللإشعار بسمو مكانة هذا المنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - وبعلو قدره . »

وقوله : « وهو الحق من ربهم ، جملة معترضة ، لتأكيد حقيقة هذا المنزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - وتقرير كماله وصدقه . »

أى : وهذا المنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو الحق الكائن من عند الله - تعالى - رب العالمين ، لا من عند أحد سواه .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢٣

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢١٥

وقوله : د كفر عنهم سيئاتهم ، خبر الموصول . أى والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة ، محاسبهم - سبحانه - ما عملوه من أعمال سيئة ، ولم يماقهم عليها . فضلا منه وكرما .

فقوله : د كفر ، من الكفر بمعنى الستر والتغطية . يقال : كفر الزارع زرعه إذا غطاه وستره حماية له مما يضره . والمراد به هنا : المحو والازالة على سبيل المجاز .

وقوله : د وأصلح بالهم ، معطوف على ما قبله . أى : محاسبهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، ما افترقوه من سيئات ، كما قال - تعالى - : د إن الحسنات يذهبن السيئات ، ولم يكف - سبحانه - بذلك ، بل وأصلح أحوالهم وأمورهم وشؤونهم . بأن وفقهم للتوبة الصادقة في الدنيا ، وبأن منحهم الثواب الجزيل في الآخرة .

فالمراد بالبال هنا : الحال والأمر والشأن .

قال القرطبي : والبال كالمصدر . ولا يعرف منه فعل ، ولا يجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر ، فيقولون فيه بالات ... (١)

وهذه الجملة السكرية وهي قوله : د وأصلح بالهم ، نعمة عظمى لا يحسبها إلا من وهبه الله - تعالى - إياها ، فإن خزائن الأرض لا تنفع صاحبها إذا كان مشقت القلب ، ممزق النفس ، مضطرب المشاعر والأحوال . أما الذي ينفعه فهو راحة البال ، وطمأنينة النفس . ورضا القلب . والشعور بالأمان والسلام .

والإشارة في قوله : د ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ... ، تعود إلى ما مر من ذم الكافرين ، ومدح المؤمنين .

أى : ذلك الذى حكمتنا به من ضلال أعمال الكافرين ، ومن إصلاح بال

المؤمنين ، سييه أن تدين كفروا اتبعوا في دنياهم الطريق الباطل الذي لاخير فيه ولا فلاح . وأن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة في دنياهم ، اتبعوا طريق الحق الكائن من ربهم .

فالمراد بالباطل هنا . الكفر وما يتبعه من أعمال قبيحة ، والمراد بالحق : الإيمان والعمل الصالح .

وقوله ، ذلك ، مبتدأ ، وخبره ما بعده .

وقوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ، أى : مثل ذلك البيان الرائع الحكيم ، بين الله - تعالى - للناس أحوال الفريقين ، وأوصافهما الجارية في الغرابة بجرى الأمثال ، وهى اتساع المؤمنين الحق وفوزهم . واتباع الكافرين الباطل وخسرانهم .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أو فى أن جعل الإضلال مثلاً لحبيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين ، (١)

• • •

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند لقاءهم لأعدائهم وبعد انتصارهم عليهم ، كابين لهم الحكمة من مشروعية القتال . وأجزاء الحسن الذى أعده للمجاهدين . فقال - تعالى - :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا ائْتَمَتُمُوهُمْ فَسَدُّوا الْوُثَاقَ ، فَإِمَّا مِتًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَسَكُنَ لَيْلَى بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ

قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ
بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) .

والقاء في قوله - تعالى - : « فإذا لقيتم ، اترتيب ما بعدها من إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند قتال أعدائهم . على ما قبلها وهو بيان حال الكفار .

فالمراد باللقاء هنا : القتال لا مجرد اللقاء والرؤية . كما أن المراد بالذين كفروا هنا المشركون وكل من كان على شاكلتهم ممن ليس بيننا وبينهم عهد بل بيننا وبينهم حرب و قتال .

وقو - سبحانه - : « فاضرب الرقاب ، أمر للمؤمنين بما يجب فعله عند لقاءهم لأعدائهم .

وقوله : « فاضرب ، منصوب على أنه مصدر لفعل محذوف .

أي : فإذا كان حال الذين كفروا كما ذكرت اسمكم من إحباط أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق . . . فإذا لقيتموهم للقتال ، فلا تأخذكم بهم رافة ، بل اضربوا رقابهم ضرباً شديداً ، .

والتعبير عن القتل بقوله : « فاضرب الرقاب ، ، لتصويره في أظطح صورته ، ولتهويل أمر هذا القتال . ولإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله . . .

قال صاحب الكشف : قوله : « لقيتم ، من اللقاء وهو الحرب » فاضرب الرقاب ، أصله : فاضربوا الرقاب ضرباً ، حذف الفعل وقدم المصدر ، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنك تذكر المصدر ، وتدلل على الفعل بالنسبة التي فيه .

واضرب الرقاب : عبارة عن القتل . . . وذلك أن قتل الإنسان أكثر

ما يكون بضرب رقبتة ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبتة من المقاتل ..

على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ، ما ليس في لفظ القتل ، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق ، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن .. (١) ،

وقوله - سبحانه - : « حتى إذا أنجستهم فشدوا الوثاق .. » بيان لما يكون من المؤمنين بعد مثل حركة أعدائهم ، وإنزال الهزيمة بهم .

وقوله « أنجستهم » من الإنجاس بمعنى كثرة الجراح ، مأخوذ من الشيء التخنين ، أى : الغليظ . يقال : أنجن الجيش في عدوه ، إذا بالغ في إنزال الحراقة الشديدة به ، حتى أضعفه وأزال قوته ...

والوثاق - بفتح الواو وكسر هـ - : اسم للشيء الذي يوثق به الأسير كالرباط أى : عند لقائكم - أيها المؤمنون - لأعدائكم ، فاضربوا أعناقهم ، فإذا ما تغلبتم عليهم وقهرتمهم ، وأنزلتم بهم الجراح التي تجعلهم عاجزين عن مقادمتكم ، فأحكموا قيد من أسرتموه منهم ، حتى لا يستطيع التفلت أو الهرب منكم ..

وقوله - سبحانه - « فأما منا بعد وإما فداء » إرشاد لما يفعلون بعد ذلك . والمن : الإطلاق بغير عوض يقال : من فلان على فلان إذا أنعم عليه بدون مقابل .

والفداء : ما يقدمه الأسير من أموال أو غيرها لكي يفتدى بها نفسه من الأسر .

وقوله : « منا وفداء ، منصوبان على المصدرية بفعل محذوف : أى : فإما
 يَمْنون عليهم بعد الأمر منا بأن تطلقوا سراحمهم بدون مقابل ، وإما أن تقدوا
 فداء بأن تأخذوا منهم فدية في مقابل إطلاق سراحمهم ... »

وقوله - سبحانه : « حتى تضع الحرب أوزارها » غاية لهذه الأوامر
 والإرشادات وأوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها ، كالسلاح
 وما يشبهه .

قال الشاعر :-

وأعددت للحرب أوزارها - وما حاطوا ولا وحيلا ذكرورا
 أى : افعلوا بهم ما أمرناكم بفعله ؛ واستمروا على ذلك حتى تنتهى الحرب
 التى بينكم وبين أعدائكم بهزيمتهم وانتصاركم عليهم .

وسميت آلات الحرب وأحاطها بالأوزار ، لأن الحرب لما كانت لا تقوم
 إلا بها ، فكأنها تحملها وتستقل بها ، فإذا انقضت الحرب فكأنها وضعت
 أحاطها وانفصلت عنها .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من مشروعية قتال الأعداء ، مع أنه - سبحانه
 - قادر على إهلاك هؤلاء الأعداء فقال : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ،
 ولكن ليبلى بعضكم ببعض .)

واسم الإشارة : خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر ذلك . أو فى محل نصب
 على المفعولية بفعل محذوف ، أى : افعلوا ذلك الذى أمرناكم به وأرشدناكم
 إليه واعملوا أنه - سبحانه - لو يشاء الانتصار من هؤلاء الكافرين والانتقام
 منهم لفعل ، أى : لو يشاء إهلاككم لأهلككم ، ولكنه - سبحانه - لم يفعل
 ذلك بل أمركم بمحاربتهم ليختبر بعضكم ببعض ، فيتميز عن طريق هذا
 الاختبار والامتحان ، قوياً الإيمان من ضعيفة ، كما قال - تعالى - : « ولنبولنكم
 حتى تعلم الجاهدين منكم والصابرين ونبول أخباركم . »

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعدّه للمجاهدين من ثواب عظيم فقال :
 « والذين قتلوا في سبيل الله ... ، أى : والذين استشهدوا وهم يقاتلون من
 أجل إعلاء كلمة الله .

« فلن يضل أعمالهم ، أى : فلن يضيع أعمالهم ولن يبطلها ..
 بل « سيهديهم ، أى : بل سيوصلهم إلى طريق السعادة والفلاح .
 « ويصلح بالهم ، أى : ويصلح أحوالهم وشئونهم وقلوبهم ...
 « ويدخلهم الجنة عرفاهم ، أى : ويدخلهم بعد كل ذلك الجنة يوم القيامة
 ويهديهم إلى بيوتهم ومساكنهم فيها : بحيث لا يخطئونها حتى لا تكأنهم يقيمون
 فيها منذ خلقوا ، وذلك كله بإلهام من الله - تعالى - لهم .
 قال الألوسي ما ملخصه : « عرفها لهم ، هذا التعريف فى الآخرة ، قال
 مجاهد : « يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله - تعالى -
 لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ... ، وذلك بإلهام منه
 - عز وجل - ..

وورد فى بعض الآثار أن حسناته تكون دليلاً له على منزله فيها . وقيل :
 لأنه - تعالى - رضى على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع من التعريف ..
 وقيل : معنى عرفها لهم : طيبها لهم من العرف وهو الرائحة الطيبة ، ومنه
 طعام معرف ، أى مطيب ..

وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا ، وهو بذكر أوصافها . والمراد أنه
 - سبحانه - لم يزل يمدحها لهم ، حتى عشقوها ، فاجتهدوا فى فعل ما يوصلهم
 إليها ... (١)

هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - وجوب قتال الكافرين بكل شدة وقوة ، حتى تضعف شوكتهم و
 وتذول دولتهم ، ويخضعوا لحكم شريعة الإسلام فيهم ..

وفي هذه المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

٢ - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى - : « فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْعَنَاءِ » ، أن الأسير من الأعداء يدور أمره بين هاتين الحالتين إما أن يطلق سراحه بدون مقابل ، وإما أن يطلق سراحه في مقابل فدية معينة فأخذها منه ، وقد تكون هذه الفدية مالا ، أو عملا ، أو غير ذلك مما فيه منفعة للمسلمين .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - : « فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاتَّقُوا اللَّهَ الْمُسْتَرَكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ » (١) .

ويرى المحققون من العلماء أن هذه الآية ، وهي قوله - تعالى - : « فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْعَنَاءِ » ،

تحكى حالات معينة يكون أمر الأسرى فيها دائرا بين المن والفداء ، لأنهما من مصلحة المسلمين ، وهناك حالات أخرى يكون الأصلح فيها قتل الأعداء ، أو استرقاقهم .

فسأله الأسرى من الأعداء ، يكون الحكم فيها على حسب ما تقتضيه مصلحة المسلمين ، ومرجع الحكم فيها إلى البصيرة بالحرب وبوضع خططها ، لأنهم أغرف الناس بكيفية معاملة الأسرى .

وهذا الرأي الأخير هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه الثابت من فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن أفعال أصحابه ، ولأن ذكر المن والفداء لا ينافي جواز غيره كما قتل - مثلا - ، لأن هذا الغير مفهوم من آيات أخرى ذكرت هذا الحكم فى أوقات وحالات معينة .

وقد رجح هذا الرأي كثير من العلماء ، منهم الإمام ابن جرير ، فقد قال ما ملخصه - بعد أن ساق جملة من الأقوال - : « والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة .. »

لأنه غير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والقتل والفداء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكورا في هذه الآية ، لأنه قد أذن - سبحانه - بقتلهم في آيات أخرى منها : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... ،

وقد فعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل ذلك ، مع الأمرى ففي بدر قتل عقبة بن أبي معيط ...

وأخذ الفداء من غيره ... ومن على نمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده (١) .

وقال القرطبي - بعد أن ذكر أربعة أقوال - : الخامس : أن الآية محكمة . والإمام مخير في كل حال .

وبهذا قال كثير من العلماء منهم : ابن عمر ، والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي .. وغيرهم . وهو الاختيار ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك . فقد قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - في بدر النضر بن الحارث . وأخذ الفداء من أسارى بدر ... وقد من على سبي هوازن . وهذا كله ثابت في الصحيح ... (٢) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وما نحسبنا مخطئين إذا قلنا إن الذي كان من النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأعمال المختلفة ، كان نزولا على مقتضى المصلحة ، ولذلك نراه كان يجتهد في تعرف وجوه المصلحة . فيستشير أصحابه .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٩ ص ١٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٨ .

ولو كان الأمر أمر خطة مرسومة ، وحدا لا يتخطى . ما كان هناك معنى للاستشارة ، ولا للزول على رأى بعض أصحابه ، ولما خالف فى الحرب الواحدة بين أسير وأسير . فقتل هذا ، وأخذ الفداء من هذا ، ومن على هذا .

وإذا فالمصلحة العامة وحدها هى المحسنة ، وهى الخطة التى تتبع فى الحروب خصوصاً والحرب مكر وخديعة ، وما دامت مكر وخديعة فليترك للماكرين وضع خطط المكر والخديعة ولا يرسم لهم كيف يمحرون ، وإلا ما كانوا لماكرين ، (١) .

٣ - بشارة الشهداء بالثواب الجزيل ، وبالأجر العظيم ، ويكفى لذلك قوله - تعالى - :

« والذين قتلوا فى سبيل الله قلن يعضل أعمالهم ، سيديهم ويصلح بهم . ويدخلهم الجنة عرفاً لهم . »

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن قيس الجذامى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعطى الشهيد من خصال : عند أول قطرة من دمه يكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعدة من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويؤمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر . ويحلى حلة الإيمان ، (٢) .

• • •

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين بشرم فيه بنصره متى نصرنا دينه ، وتوعد الكافرين بالخيبة والخسران ، ووبخهم على عدم تدبرهم فى

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٧٦ لفضيلة الشيخ محمد على السائس .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٩٢ .

مصير الذين من قبلهم ، وسلي النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيُّ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُمْ فَأَمَّا فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) » .

والمراد بنصر المؤمنين الله - تعالى - نصرهم لدينه ، بأن يستقيموا على أمره ويتبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه .
والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إن تنصروا دين الله - عز وجل - وتبعوا رسوله ، « ينصركم » - سبحانه - على أعدائكم ويثبت أقدامكم عند قتالكم إياهم ويوفقكم بعد ذلك للثبات على دينه ، وللشكر على نعمه .
وفي معنى هذه الآية ، وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٢) .

(١) سورة الحج الآية ٤٠ .

(٢) سورة الروم الآية ٤٧ .

وقوله - عز وجل - : «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» (١).

وبعد هذا النداء الذي يحمل أكرم البشارات للمؤمنين ، ذم - سبحانه - الكافرين ذما شديدا ، فقال : «والذين كفروا ، فتعسا لهم ، وأضل أعمالهم» .

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره محذوف ، و«تعسا» منصوب على المصدر بفعل مضمر من لفظه ، واللام في قوله «لهم» ، لتبيين المخاطب ، كما في قوله : «سقياء له» . أى : أعنى له . يقال : تعس فلان - من باب منع وسمع - بمعنى هلك .

قال القرطبي ما ملخصه : وقوله : «تعسا لهم» نصب على المصدر بسبيل الدعاء ، مثل «سقياء له» ... وفيه عشرة أقوال : الأول : بعد لهم . الثاني : حزنا لهم ... الخامس : هلاكا لهم ... يقال : تعسا لفلان . أى ألزمه الله هلاكا . ومنه الحديث الشريف : تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط لم يرض ... ،

وفي رواية : تعس وانتكس ، وإذا شيك ... أى أصابته شوكة - فلا انتكش ، أى : فلا شفى من مرضه ، (١) .

والمعنى : والذين كفروا فتعسوا تعسا شديدا ، وهلكوا هلاكا مبيرا ، وأضل الله - تعالى - أعمالهم ، وإن أحبطها ولم يقبلها منهم ، لأنها صدرت عن قفوس أشركت مع خالقها ورازقها آله أخرى في العبادة .

فقوله : «وأضل أعمالهم» ، معطوف على الفعل المقدر الذى نصب به لفظ «تعسا» ، ودخلت الفاء على هذه اللفظ ، تشبيها للاسم الموصول بالشرط .

(١) سورة غافر ٥١ .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٢

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت بهم إلى الخسران والاضلال فقال :
وذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم .

أي : ذلك الذي حل بهم من التعاسة والاضلال بسبب أنهم كرهوا
ما أنزله الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - من قرآن يهدي إلى
الرشد ، فكانت نتيجة هذه الكراهية ، أن أحبط الله أعمالهم الحسنة التي
عملوها في الدنيا كالإعطاء للطعام ، وصلة الأرحام .. لأن هذه الأعمال لم تصدر
عن قلب سليم . يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ثم وبخهم - سبحانه - على عدم اعتبارهم بما في هذا السكون من عجز
وعظائم فقال : أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين
من قبلهم ...

والهمزة للاستفهام التقريعي ، والفاء معطوفة على مقدر ، أي : أقبحوا
في مساكنهم فلم يسيروا في جنبات الأرض ، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة
المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط ... وغيرهم .

وقوله : دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، جملة مستأنفة ، كأنه قيل :
كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ؟ فكان الجواب : دمر الله - تعالى - عليهم
مساكنهم وأموالهم ، فالمفعول محذوف للتحويل والمبالغة في الإهلاك . يقال :
دمر الله - تعالى - الأعداء تدميراً ، إذا أهلكهم إهلاكاً شديداً . ودمر عليهم ،
أي : أهلك ما يختص بهم ، وجاء هنا بكلمة « عليهم » لتضمين التدمير معقد
الإيقاع أو الهجوم ..

وقوله : وللكافرين أمثالها ، وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين
للنبي - صلى الله عليه وسلم - ،

أي : هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين ، وللكافرين المعاصرين لك
- أيها الرسول الكريم - السائرين على درب سابقينهم في الكفر والاضلال
والطغيان . أمثال تلك العاقبة السيئة .

فالضمير في قوله - تعالى - ، أمثالها ، يعود إلى العاقبة المتقدمة . وجمع - سبحانه - لفظ الأمثال باعتبار تعدد العذاب الذي نزل بالأمم المكذبة السابقة .
واسم الإشارة في قوله - سبحانه - ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم ، .

أى : ذلك التدمير والإهلاك الذى حل بالمكذبين ، بسبب أن الله - تعالى - هو مولى المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم ... أما الكافرون فلا مولى لهم ينصرهم أو يدفع عنهم ما حل بهم من دمار وخسران .

فالمراد بالمولى هنا : الناصر والمعين ، وأن نصرته - تعالى - هى للمؤمنين خاصة . ولا يناقض هذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق .. ، لأن المراد بقوله : مولاهم الحق ، : لإلههم الحق ، وما لكهم الحق ، وخالقهم وخالق كل شئ .

ثم بين - سبحانه - ما أعد للمؤمنين من ثواب عظيم ، وما أعد للكافرين من عذاب أليم ، قال : إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يمتنعون .. ، أى يتمنعون ويتمنعون بملاذ الدنيا أيا ما قليلة ...

و يأكلون ، ما كلهم بدون تفكير أو نحو للحلال أو شكر لله ، كما تأكل الأنعام ، طعامها الذى يلقه لإيها صاحبها ..

فالمقصود بالجملة الكريمة ذم هؤلاء الكافرين ، لشبههم بالأنعام التى لا تعقل ، فى كونهم يأكلون طعامهم دون أن يشكروا الله - تعالى - عليه ، ودون أن يفرقوا بين الحلال والحرام ، ودون أن يرتفعوا بإنسانيتهم عن مرتبة الحيوان الأعجم ...

قال الألوسى : والمعنى أن أكلهم مجرد عن الفكر والنظر ، كما تقول للجاهل : تعيش كما تعيش البهيمة فأن لا تريد التشبيه فى مطلق العرش ، ولكن

في خواصه ولوازمه . وحاصله أنهم يا كلون غافلين عن عواقبهم ومتى أمورهم^(١) .

وقوله : والنار مشوى لهم بيان لسوء عاقبتهم في الآخرة ، بعد بيان صورتهم القبيحة في الدنيا . والمشوى : اسم مكان محل إقامة الإنسان .
أى : والنار هي المكان المعد لنزولهم فيه يوم القامة .

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما أصابه منهم من أذى فقال : وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم .

وكلمة : كأين ، مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنوطة ، ثم هجر معنى جزأها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير ، ويكنى عن عدد مبهم فتحتاج إلى تمييز بعدها . وهي مبتدأ ... وغوله : أهلكتناهم ، خبرها . و من قرية ، تمييز لها .. والمراد بالقرية أهلها ، وهم مشركو قريش .
أى : وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها - أيها الرسول الكريم - ، فترتب على فعلهم هذا أن أهلكتناهم دون أن ينصرهم من عقابنا ناصر ، أو أن يجيرهم من عذابنا مجير .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ماملخصه : وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لأهل مكة ، في تكذيبهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد المرسلين ، وخاتم النبيين

روى ابن أبي حاتم ، بسنده - عن ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما خرج من مكة إلى الغار ، التفت إليها وقال : يا مكة : أنت أحب بلاد الله إلى الله وأنت أحب بلاد الله إلى ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ... فانزل الله هذه الآية^(٢) .

(١) تفسير الألوسي ح ٢٦ ص ٤٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ح ٧ ص ٢٩٤

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها في الموازنة والمقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين ، فقال - تعالى - :

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كُنَّ زَيْنًا لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مِثْلَ الْجُنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كُنَّ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ (١٥) » .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أفمن كان على بينة من ربه » ، للإنكار والنفي . والغاء للعطف على مقدر يقتضيه السياق ، و « من » مبتدأ ، والخبر قوله « كن زينا له سوء عمله ... »

والبينة : ما يقين به الحق من كل شيء ، كالنصوص الصحيحة في النقلات والبراهين السليمة في العقليات .

والمراد بمن كان على بينة من ربه : الرسول -- صلى الله عليه وسلم -- وأتباعه . والمراد بمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهوائهم : المشركون الذين استجبوا الأعمى على الهدى .

والمعنى : أفمن كان على بينة من أمر ربه ، وعلى طريقة سليمة من هديه يستوى مع من كان على ضلالة من أمره ، بأن ارتكب الموبقات مع توبهه بأنها حسنات ، واتبع هواه دون أن يفرق بين القبيح والحسن ؟ لاشك أنهما لا يستويان في عقل أى عاقل ، فإن الفريق الأول مهتد في منهجه وسلوكه ، والفريق الثانى فى التقيض منه .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بأن بين مصير الفريقين قتال : « مثل الجنة التي وعد المتقون ... »

والمراد بالمثل هنا : الصفة . وهو مبتدأ ، والكلام على تقدير الإستفهام الإنكارى ، وتقدير مضاف محذوف ، والخبر قوله - تعالى - : « كن هو خالد فى النار ... »

أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار ، أو : أمثل الجنة كمثل جزء من هو خالد فى النار ، وقدر الاستفهام فى المبتدأ لأنه مرتب على الإنكار السابق فى قوله : « أفن كان على بينة من ربه ... » .

ورحم الله - تعالى - صاحب الكشف ، فقد قال : فإن قلت ما معنى قوله تعالى - : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار ، كن هو خالد فى النار ؟

قلت هو كلام فى صورة الاثبات ، ومعناه النفي والافكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحروف الإنكار ، ودخوله فى حيزه ، وانخراطه فى سلكه ، وهو قوله - تعالى - : « أفن كان على بينة من ربه كن زين له سوء عمله ... » ؟ فكأنه قيل : أمثل الجنة كن هو خالد فى النار ، أى كمثل جزء من هو خالد فى النار ؟

فإن قلت : فلم عرى فى حرف الإنكار ؟ وما فائدة التعرية ؟

قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زياده تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينه والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يشبث التسوية بين الجنة التى تجرى فيها الأنهار . وبين النار التى يسقى أهلها الجحيم .. (١)

وقوله - سبحانه - : « فيها أنهار من ماء غير آسن ، تفسير مسوق لشرح محاسن الجنة أى : صفة الجنة التى وعد الله - تعالى - بها عباده المتقين ، أنها

فيها أنهار من ماء ليس متغيرا في طعمه أو رائحته ، وإنما هو ماء طيب لذيق تشتهيبه النفوس . .

والماء الآسن : هو الماء الذي تغير طعمه وريحه ، لطول مكثه في مكان معين . يقال آسن الماء يأسن - كضرب - يضرب ، وإذا تغير

« وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، أى : وفيها أيضا - أنهار من لبن لم يتغير طعمه لا بالحموضة ولا بغيرها عما يجرى على الألبان التي تشرب في الدنيا .

« وأنهار من خمر لذة للشاربين ، أى : وفيها كذلك أنهار من خمر هي في غاية اللذة لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع ...

وقال - سبحانه - . « لذة للشاربين ، الإشار بأنها لذينة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا فإن من الناس من ينفرد بها ويعاقبها حتى ولو كان على غير دين الإسلام . « وأنهار من عسل مصفى ، أى : وفيها - أيضا - أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره .

« ولهم ، أى : للمؤمنين « فيها ، أى : في الجنة فضلا عن كل ذلك ، من كل الثمرات « التي يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها : « مغفرة من ربهم ، أى : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم ذنوبهم وأزالها عنهم ، وحوطها إلى حسنات بكرمه وإحسانه .

وقوله - سبحانه - : « من هو خالد في الثار وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم » أى : أمثل جزاء المؤمنين الذي هو الجنة التي فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل . . كمثل عقاب الكافرين والمتمثل في نارهم خالدين فيها أبدا وفي ماء في أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم ؟

لا شك أن كل غافل يرى بونا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار في المنهج والسلوك ، وفي المصير الذي يصير إليه كل فريق .

• • •

وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين ، وعن مصير كل فريق . انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين ، وعن موقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم - ومن القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - عليه ، فقال - سبحانه - :

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاسْتَفْزَرَ لَذَنِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَّوِلَكُمْ (١٩) » .

وضمير الجمع في قوله :- تعالى :- ، ومنهم من يستمع إليك . . . ، يعود إلى هؤلاء الكافرين الذين يأكلون كما نأكل الأنعام ، وذلك باعتبار أن المنافقين فرقة من الكافرين ، إلا أنها تخفى هذا السكفر وتبطئه .

كما يحتمل أن يعود إلى كل من أظهر الإسلام ، باعتبار أن من بينهم قوما قالوا كلمة الإسلام بأفواههم دون أن تصدقها قلوبهم .

وعلى كل حال فإن النفاق قد ظهر بالمدينة بعد أن قويت شوكة المسلمين بها ، وصاروا قوة يخشاها أعداؤهم . هذه القوة جعلت بعض الناس يتظاهرون بالإسلام على كره وهم يضمرون له ولا تباعه العداوة والبغضاء . . . ويؤيدون في ذلك اليهود وغيرهم من الضالين .

أى : ومن هؤلاء الذين يناصرونك العداوة والبغضاء - أيها الرسول الكريم - قوم يستمعون إليك بأذانهم لا بقلوبهم .

« حتى إذا خرجوا من عندك ، أى : من مجلسك الذى كانوا يستمعون إليك فيه . » قالوا ، على سبيل الاستهزاء والتهمك ، للذين أوتوا العلم ، من أصحابك ، الذين فقهوا كلامك وحفظوه .

« ماذا قال أنفا ، أى : ماذا كان يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يفارق مجلسه . »

فقوله : « أنفا ، اسم فاعل ، ولم يسمع له فعل ثلاثى ، بل سمع ائتنف يأتنف واستأنف يستأنف بمعنى ابتداء . »

قال القرطبى : قوله : « ماذا قال أنفا ، أى : ماذا قال الآن ... » فأنفا يراد به الساعه التى هى أقرب الأوقات إليك من قولك استأنفت الشيء . إذا ابتدأت به . ومنه قولهم : أمر أنف ، وروضة أنف ، أى : لم يرعها أحد . (١) . وقال الألوسى ما ملخصه . قوله : « ومنهم من يستمع إليك ... » هم المنافقون ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، كما أن جمعه بإعتبار المعنى .

قال ابن جريج . كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته نهاونا منهم .

ومقصودهم بقولهم : ماذا قال أنفا ، الاستهزاء وإن كان بصورة الاستسلام ...

و ، أنفا ، اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له ثلاثى ، بل المسموع : استأنف وأتنف ، ... (٢) .

ثم بين - سبحانه - حالهم فقال : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . »

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢٣٨

(٢) راجع تفسير الألوسى ج ٢٦ ص ٥٠ .

أى : أولئك المنافقون الذين قالوا هذا القول الفبيح ، هم الذين طبع الله - تعالى - على قلوبهم ، بأن جعلها بسبب استحبابهم الضلالة على الهداية لا ينفذون بنصح ، ولا يستجيبون لحير ، وهم الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم فصاروا لا يعقلون حقاً ، ولا يفقهون حديثاً .

فآية الكريمة تصور تصويراً بليغاً ما كان عليه هؤلاء المنافقون من مكر وخداع ، ومن خبث وسوء طوية ، وترد عليهم بهذا الذم الشديد الذى يناسب جرمهم .

ثم يعقب - سبحانه - على ذلك ببيان حال المؤمنين الصادقين فيقول :
والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ،

أى : هذا هو حال المنافقين ، وهذا هو الحكم الذى يناسبهم ، أما الذين اهتدوا إلى الحق ، واستجابوا له ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، فهم الذين زادهم الله - تعالى - هداية على هدايتهم . وزادهم علماً وبصيرة وفقهاً فى الدين ، ومنحهم بفضلهم وإحسانه خلق التقوى والخشية منه ، والطاعة لأمره ، وكافأهم على ذلك بما يستحقون من ثواب جزيل .

ثم تعود السورة الكريمة إلى توبيخ هؤلاء المنافقين على غفلتهم وانطوائهم بصائرهم ، فتقول : فمهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ، فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟

فلاستفهام لانكار والتعجب من حالهم ، وقوله : أن تأتيهم ، يدل اشتغالهم من الساعة ، والأشراط جمع شرط - بالتحريك مع الفتح - وهو العلامة ، وأصله الإعلام عن الشيء .

يقال : أشرط فلان نفسه لكذا ، إذا أعلها له وأعدّها ، ومنه الشرطى - كتركى - والجمع شرط - بضم ففتح - سموا بذلك لأنهم أعلوا أنفسهم بعلامات يعرفون بها ، وتميزهم عن غيرهم .

وقوله : « فأنى لهم ، خير مقدم و » ذكر اكرم ، مبتدأ مؤخر ، والضمير في قوله « جاءتهم » يعود إلى الساعة ، والكلام على حذف مضى قبل قوله « ذكر اكرم اى : فأنى لهم نفع ذكر اكرم ؟ »

والمعنى : ما ينتظر هؤلاء الجاهلون إلا الساعة ، التى سيفاجئهم بحيقوها مفاجأة بدون مقدمات ، والحق أن علاماتها قد ظهرت دون أن يرفعوا لها رأسا ، ودون أن يعتبروا بها أو يتعظوا لإستيلاء الأواء عليهم .

ولكنهم عند ما تداهمهم الساعة بأهوالها ، ويقفون للحساب . يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله ... ولكن إيمانهم فى ذلك الوقت لن ينفعهم ، لأنه جاء فى غير محله الذى يقبل فيه ، وتذكرهم واتعظهم - أيضا - لن يفيدهم لأنه جاء بعد فوات الأوان .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، ^(١) »

وقوله - تعالى - : « وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ، ^(٢) »

وقوله - عز وجل - : « يومئذ يتذكر لإ انسان وأنى له الذكرى ، ^(٣) »

قال الألوسى : والظاهر أن المراد بأشراط الساعة هنا : علاماتها - التى كانت واقعة إذ ذاك ، وأخبروا أنها علامات لها ، كبعثة نبينا - صلى الله عليه وسلم - فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بعثت أما والساعة كهاتين . وأشار بالسبابة والوسطى . »

(١) سورة غافر الآية ٨٥

(٢) سورة سبأ الآية ٥٢

(٣) سورة الفجر الآية ٢٣

وأراد - صلى الله عليه وسلم - مزيد القرب بين مبعثه والساعة ، فإن
السبابة تقرب من الوسطى

وأخرج أحمد عن بريدة قبل : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم
يقول : بعثت أبا والساعة جميعا ، وإن كادت لتسبقني ، وهذا أبلغ في إفادة القرب
وعدوا منها انشقاق القمر الذي وقع له - صلى الله عليه وسلم - والدخان
الذي وقع لأهل مكة ، أما أشرأطها مطلقا فكثيرة ، ومنها كلكون الحفاة العراة
رعاء الشاة يتطاولون في البنيان ... (١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يداوم على استغفاره
وطاعته - تعالى - وأن يأمر أتباعه بالاعتداء به في ذلك فقال : فاعلم
أنه لا إله إلا الله ...

والفاء في قوله : فاعلم ... ، للإفصاح عن جواب شرط معلوم مما مر
من آيات ..

والتقدير : إذا تبين لك ما سقناه عن حال السماء والاشقياء ، فاعلم أنه
لا إله إلا الله ، وأثبت على هذا العلم ، وأعمل بمقتضاه ، واستمر على هذا
العمل ، واستغفر لذنبك ، أي : واستغفر الله - تعالى - من أن يقع منك ذنب
واعتصم بحبله لكي يحصمك من كل مالا يرضيه .

واستغفر - أيضا - المؤمنون والمؤمنات ، بأن تدعو لهم بالرحمة والمغفرة
، والله - تعالى - بعد كل ذلك ، يعلم منقلبكم ومثواكم ، أي يعلم كل متقلب
وكل إقامة لكم سواء أكانت في بر أم في بحر أم في غيرهما .

والمقصود : أنه - تعالى - يعلم جميع أحوالكم ولا يخفى عليه شيء منها .
والمقلب : المتصرف . من التقلب وهو التصرف والانتقال من مكان إلى
آخر . والمثوى : المسكن الذي يأبى إليه الإنسان ، ويقوم به .

قال الإمام ابن كثير: وقوله: «عالم أنه لا إله إلا الله...» هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمرا بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله: «واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات».

وفي الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني». اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطيء وعمدي، وكل ذلك عندي.

وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة: وجوب المداومة على استغفار الله - تعالى - والتوبة إليه توبة صادقة نصوحا...

لأنه إذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - قد أمره - سبحانه - بالاستغفار، فأولى بغيره أن يواظب على ذلك، لأن الاستغفار بجانب أنه ذكر لله - تعالى - فهو - أيضا - شكر له - سبحانه - على نعمه.

وقد توسع الإمام الألويسي في الحديث عن معنى قوله - تعالى - «واستغفر لذنبك...» فارجع إليه إن شئت^(٢).

• • •

ثم بين - سبحانه - به - ذلك حال المنافقين عندما يدعون إلى القتال في

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٩٨.

(٢) راجع تفسير الألويسي ٢٦٥ من ص ٥٥ إلى ص ٦٦.

سبيل الله ، وكيف أنهم يستولون عليهم الذعر والهلوع عند مواجهة هذا التكليف ، وكيف سيكون مصيرهم إذا ما استمروا على هذا النفاق . . . فقال - تعالى - :

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ حَكِيمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ، رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَنَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِلْقُرْآنِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) » .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : لما بين الله حال المنافق والكافر ، والممتدئ المؤمن عند استماع الآيات العلمية ، من التوحيد والحشر وغيرهما . . . أتبع ذلك ببيان حالهم في الآيات العملية . فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ، ويطلب تنزيلها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول : هلا أمرت بشيء من العبادة . والمنافق كان إذا نزلت الآية أو السورة وفيها تكليف كره ذلك . . فذكر - سبحانه - تباین حال الفريقين في العلم والعمل . فالمنافق لا يفهم العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل . . . (١)

فقوله - تعالى - : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ . . . حِكَايَةً لِّتَطَّلِعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ إِلَى نَزُولِ الْقُرْآنِ ، وَتَشَوْقُهُمْ إِلَى الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهِ ، وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ . . »

أى : ويقول الذين آمنوا إيماناً حقاً ، لرسولهم - صلى الله عليه وسلم - :
يا رسول الله هلا نزلت سورة جديدة من هذا القرآن الكريم ، الذى نحب
ونحب العمل بما فيه من هدايات وآداب وأحكام وجهاد فى سبيل الله -
عز وجل - .

قوله : ، فإذا أنزلت سورة بحكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى
قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المنشى عليه من الموت ، بيان لموقف
المنافقين من الجهاد فى سبيل الله ، وتصوير بديع لما انطوت عليه نفوسهم
من جبن خالع .

والمراد بقوله بحكمة : أى : واضحة المعانى فيما سيقى له من الأمر بالجهاد
فى سبيل الله ، بحيث لا يوجد مجال لتأويل معناها على الوجه الذى سيقى له .
أى : هذا هو حال المؤمنين بالنسبة لجهادهم للقرآن الكريم ، أما حال
المنافقين فإنك تراه إذا ما أنزلت سورة فاصلة بينة تأمر أمراً صريحاً بالقتال
لإعلاء كلمة الله تراه ينظرون إليك كنظر من حضره الموت فصار بصره
شاخصاً لا يتحرك من شدة الخوف والفرع .

والمقصود أنهم يوحى ن أبصارهم نحو النبى - صلى الله عليه وسلم - بحدة
وهلع ، لشدة كراهتهم للقتال معه ، إذ فى هذا القتال عز للإسلام ، ونصر
للمؤمنين ، والمنافقون يبغضون ذلك

فالآية الكريمة ترسم صورة خالدة بليغة لكل نفس لثيمة خوار ، مبتوتة
عن الإيمان ، وعن الفطرة السليمة ، متجردة عن الحياء الذى يستتر غايتها . .
وقوله - تعالى - : فأولى لهم ، تهديد ووعد لهم على جبنهم وخبت
طويتهم .

وقوله : أولى ، يرى بعضهم أنه فعل ماضى بمعنى قارب ، وفاعله ضمير
يعود إلى الموت ، أى : قاربهم ما يهلكهم وهو الموت الذى يرتعدون منه . .

ويرى آخرون أن قوله «أولى» اسم تفضيل بمعنى أحق وأجدر ، وأنه خير لمبتدأ محذوف . واللام بمعنى الباء . أى : فالعقاب والهلاك أولى بهم وأحق وأجدر . ويكون قوله - تعالى - بعد ذلك «طاعة وقول معروف» كلام مستأنف والخبر محذوف .

أى : طاعة وقول معروف منكم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خير لكم من هذا السلوك الذميم .

ويضع أن يكون قوله - سبحانه - «أولى» مبتدأ . وقوله «لهم» متعلق به . والخبر قوله «طاعة» . واللام فى «لهم» أيضا . بمعنى الباء .

ويكون المعنى : أولى هؤلاء المنافقين من أن ينظروا إليك نظر المغشى عليه من الموت ، الطاعة التامة لك ، والقول المعروف أمامك ... لأن ذلك يحملهم مني أخلصوا قلوبهم لله - تعالى - على الإفلاق عن النفاق .

ولعل هذا القول الأخير هو أقرب الأقوال إلى سياق الآيات ، لأن فيه إرشادا لهم إلى ما يحميمهم من تلك الأخلاق المرذولة التى على رأسها الخداع والجبن والخور ..

وقوله : «فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم» متعلق بما قبله .

أى : أولى لهم الطاعة والقول المعروف ، وأولى لهم وأجدر بهم إذا جد الجد ، ووجب القتال ، أن يخلصوا لله - تعالى - نياتهم ، فإنهم لو صدقوا الله فى إيمانهم ، لكان صدقهم خيرا لهم ، من تلك المسالك الخبيثة التى سلكوها مع نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .

قال الشوكاني : قوله «فإذا عزم الأمر» عزم الأمر أى جد الأمر والقتال ووجب وفرض .

وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه على سبيل المجاز . وجواب «إذا»

قيل هو ، فلو صدقوا الله ، وقيل محذوف والتقدير : كرهوه أى : إذا جدد الأمر ولزم القتال خالفوا وتخلفوا ... ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما هو متوقع منهم ، ووجه الخطاب إليهم على سبيل الالتفات ليكون أزر لهم ، فقال : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم .

قال الفخر الرازى ماملا خصه : وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون : كيف نقاقل العرب وهم من ذوى أرحامنا وقبائلنا . والاستفهام للتقرير المؤكد . وعسى للتوقع ، وفي قوله : إن توليتم ، وجهان : أحدهما : أنه من الولاية . يعنى : فهل يتوقع منكم - أيها المنافقون - إن أخذتم الولاية وسار الناس بأمركم ، إلا الإفساد في الأرض وقطع الأرحام ؟

وثانيهما : أن من التولى بمعنى الإعراض وهذا أنسب - ، أى : إن كنتم تتركون القتال ، وتقولون فيسه الإفساد وقطع الأرحام ، سيكون الكفار أقاربنا ، فإن في هذه الحالة لا يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام كما كان حالكم في الجاهلية ... ، (٢) .

وعلى كلا القولين فالمقصود من الآية توبيخهم على جنبهم وكرهاتهم لما يأمرهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - من الجهاد في سبيل الله - تعالى - ، وتقربهم على أعذارهم الباطلة ، ببيان أنهم لو أعرضوا عن القتال وخالفوا تعاليم الإسلام فلن يكون منهم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، وكذلك سيكون حالهم لو تولوا أمور الناس ، وكانوا حكاما لهم .

وقوله : : أن تفسدوا ... ، خبر عسى ، وقوله : : إن توليتم ... ، جملة معترضة ، وجواب : : إن ، محذوف لدلالة قوله : : فهل عسيتم ... عليه .

(١) تفسير الشوكاني ج ٥ ص ٣٨

(٢) تفسير الفخر الرازى ح ٧ ص ٥٢٢

أى : ما يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، إن أعرضتم عن تعاليم الإسلام ، أو إن توليتم أمور الناس ، فاحذروا أن يكون منكم هذا التولى الذى سيفضى بكم إلى سوء المصير ، الذى بينه - سبحانه - فى قوله : « أولئك لعنهم الله ... » ، أى : طردهم من رحمته ، فأصمهم وأعمى أبصارهم ، بأن جعلهم بسبب إعراضهم عن الحق - كالصم الذين لا يسمعون ، وكالعمى الذين لا يبصرون ، لأنهم حين عطلوا أسماعهم وأبصارهم عن التدبر والتفكير ، صاروا بمنزلة الفاقدين لتلك الحواس .

ثم ساق - سبحانه - ما يدعوا إلى التعجب من حالهم فقال : « أفلا يتدبرون القرآن ... » ، والفاء للعطف على جملة محذوفة ، والاستفهام الإنكار والزجر .
أى : أيعرضون عن كتاب الله - تعالى - فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهي ...

« أم على قلوب أقفالها ، أى : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التى حالت بينهم وبين التدبر والتفكير .. »

والأقفال : جمع قفل - بضم فسكون ، وهو الآلة التى تقفل بها الأبواب وما يشبهها . والمراد : التسجيل عليهم بأن قلوبهم مغلقة ، لا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والنفاق . قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟

قلت : أما التذكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك . أو يراد على بعض القلوب وهى قلوب المنافقين .

وأما إضافة الأقفال ، فلا أنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح ، (١)

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » ،

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، وجوب التدبر والتفكير في آيات القرآن الكريم ، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات ، وأوامر ونواه ، وآداب وأحكام ، لأن عدم الامتثال لذلك يؤدي إلى قسوة القلوب ، وضلال النفوس ، كما هو الحال في المنافقين والكافرين .

• • •

ثم توصل السورة حديثها عن المنافقين ، فتصفح عن الأسباب التي حملتهم على هذا النفاق ، وتصور أحوالهم السيئة عندما تتوفاهم الملائكة ، وتهدم بفضح ذنوبهم ، وهتك أسرارهم ... قال - تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ، الشَّيْطَانُ سَوَّاهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِينُهُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَّارْتَدَّاهُمْ فَلَمَفْزَعُهُمْ بِسَيَآمٍ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ (٣١) » .

والمراد بارتدادهم على أدبارهم : رجوعهم إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال ..

أى : إن الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، وهم المنافقون ، الذين يتظاهرون بالإسلام ويخفون الكفر .

وقوله : من بعد ما تبين لهم الهدى ، ذم لهم على هذا الارتداد ، لأنهم لم يعودوا إلى الكفر عن جهالة ، وإنما عادوا إليه من بعد أن شاهدوا الدلائل الظاهرة ، والبراهين الساطعة على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن الإسلام هو الدين الحق .

وقوله : الشيطان سول لهم وأملى لهم ، جملة من مبتدأ وخبر ، وهى خبر إن ، فى قوله سبحانه : إن الذين ارتدوا ... ،

وقوله : سول ، من التسويل بمعنى التزيين والتسهيل . يقال : سولت فلان نفسه هذا الفعل ، أى : زينته وحسنته له ، وصورته له فى صورة الشىء الحسن مع أنه قبيح .

وقوله : وأملى ، من الإملاء وهو الإبقاء ملاوة الدهر ، أى : زمنا منه أى : الشيطان زين لهؤلاء المنافقين سوء أعمالهم ، ومدلهم فى الأمانى الباطلة . والآمال الفاسدة . وأسباب الغواية والضلال .

وأسند سبحانه هذا التسويل والإملاء إلى الشيطان ، مع أن الخالق لذلك هو الله تعالى . لأن الشيطان هو السبب فى هذا الضلال والخسران .

ثم بين سبحانه أسباب هذا الارتداد فقال : ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر ... ،

أى : ذلك الارتداد عن الحق والتردى فى الباطل . بسبب أن هؤلاء المنافقين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى على نبيه صلى الله عليه وسلم وهم اليهود ومن على شاكلتهم قالوا لهم : سنطيعكم فى بعض الأمر ، أى : سنطيعكم فى بعض أموركم وأحوالكم التى على رأسها : العداوة لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم ولما جاء به من عنده .

كما قال - تعالى - حكاية عنهم في آية أخرى: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، ولئن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . . .» (١)

وقوله - سبحانه - : « والله يعلم أسرارهم » ، تهديد لهم على هذا الدس والكيد والتآمر على الإسلام وأتباعه .

أي : والله - تعالى - يعلم ما يـسـرونه من أقوال سيئة ، ومن أفعال فبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك عقابا شديدا .

وكلمة « أسرارهم » - بكسر الهمزة - مصدر أمرت أسراراً ، بمعنى كتمت الشيء وأخفيته . وقرأ بعض القراء السبعة « أسرارهم » بفتح الهمزة - جمع سر - أي : يعلم الأشياء التي يـسـرونها ويخفونها .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم فقال : فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . .

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للاستعظام والتهويل ، و« فكيف » منصوب بفعل محذوف هو العامل في الظرف « إذا » . .

والمراد بوجوههم : كل ما أقبل منهم ، وبأدبارهم : كل ما أدبر من أجسامهم .

أي : هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم ، وقالوا ما قالوا من كفر وضلال ، كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة وقبضت أرواحهم ؟ لا شك أن حالهم سيكون أسوأ حال وأقبحه ، لأن ملائكة الموت يضربون عند قبض أرواحهم وجوه هؤلاء المخافقين وأدبارهم ، ضرباً ألماً موجعا . . .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة »

يضرّبون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، (١) .

واسم الإشارة في قوله : ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، يعود إلى توفى الملائكة لهم ، وقبضهم لأرواح هؤلاء المنافقين .

أى : ذلك الضرب الآليم لهم من الملائكة عند قبضهم لأرواحهم ، بسبب أن هؤلاء المنافقين قد اتبعوا ما يفضب الله - تعالى - من الكفر والمعاصي ، وبسبب أنهم كرهوا ما يرضيه من الإيمان والطاعة ..

« فأحبط ، - سبحانه - : أعمالهم ، بأن أبطلها ولم يقبلها منهم ، لأنهم لم تصدر عن قلب سليم .

ثم هدّدهم - سبحانه - بكشف أسرارهم ، وفضح أسرارهم فقال : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض : أن لن يخرج الله أضغانهم . »

و « أم ، منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام للتقرّيع والتوبيخ ، و « أن ، مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعدها خبرها ، وأن وصلتها سادة مسد مفعولى حسب .

والأضغان : جمع ضغن ، وهو الحقد الشديد . يقال : ضغن صدر فلان ضغنا ، - بزنة تعب - ، إذا اشتد حقه وغضبه ، والاسم الضغن . بمعنى اللاتواء والاعوجاج الذى يكون فى كل شيء . ويقال : تضغن القوم ، إذا انطوت قلوبهم على البغض والحقد .

أى : بل أحسب هؤلاء المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بمرض الكفر والضلّال ، أن الله - تعالى - غير قادر على إظهار أحقادهم الشديد لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وللبؤمّنين ؟

إن حسابهم هذا هولون من جهالاتهم ومن غباوتهم وانطلاس بصائرهم ،

لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : « ولو نشاء لأريناكم ، فلعرفتم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول . »

والمراد بالإراءة هنا : التعريف والعلم الذي يقوم مقام الرؤية بالبصر ، كما في قولهم : سار بك يا فلان ما أصنع بك .
أى : سأعذك بذلك .

والفاء في قوله : « فلعرفنهم بسيماهم » لترتيب المعرفة على الإراءة . والمراد بسيماهم : علاماتهم .

يقال سوم فلان فرسه تسويما ، إذا جعل له علامة يتميز بها .
وكررت اللام في قوله : « فلعرفنهم » للتأكيد .

ولحن القول : أسلوب من أساليبه المائلة عن الطريق المعروفة . كأن يقول للقاتل قولا يترك فيه التصريح إلى التعريض والإيهام . يقال : لحننت لفلان لحن لحننا ، إذا قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره .

قال الجمل : واللاحن يقال على معنيين : أحدهما : الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك - ومنه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لبعض أصحابه في غزوة الأحزاب : « وإن وجدتموهم ، رآى : بنى قريظة - على الفدر فالحنوا إلى لحننا أعرفه - . »

والثاني : صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ - أى : من النطق السليم إلى النطق الخطأ . -

ويقال من الأول : لحننت - بفتح الحاء - لحن فأنا لاحن .. ويقال من

الثاني : لحن - بكسر الحاء إذا لم ينطق نطقا سليما - فهو لحن ... ، (١)

والمعنى : ولو نشاء لإعلامك وتعرفك - أيها الرسول الكريم - بهؤلاء المنافقين وبذواتهم وأشخاصهم لفعلنا ، لأن قدرتنا لا يمجزها شيء . فلعرفتهم بسيماهم ، أي : بعلاماتهم الخاصة بهم ، والتي يتميزون بها عن غيرهم .

« ولتعرفنهم » - أيضا - « في لحن القول » ، أي : ولتعرفنهم بسبب أقوالهم المائلة عن الأساليب المعروفة في الكلام ، حيث يتخاطبون فيما بينهم بمخاطبات لا يقصدون ظاهرها ، وإنما يقصدون أشياء أخرى فيها الإساءة إليك وإلى أتباعك .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « ولو نشاء لأريناكم فاعرفكم بسيماهم ، يقول - تعالى - : « ولو نشاء لأريناك أشخاصهم ، فاعرفهم عيانا ، ولكن لم يفعل - سبحانه - ذلك في جميع المنافقين ، سترنا منه على خلقه ... »

« ولتعرفنهم في لحن القول » ، أي : فيما يبدون من كلامهم الدال على مقاصدهم ... كما قال عثمان - رضي الله عنه - : « ما أسر أحد سريرة إلا أباها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه » .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها » .

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو قال : خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان . قم يا فلان - حتى سمى ستة وثلاثين رجلا - ثم قال : إن فيكم - أو منكم - فاقفوا الله ، (٢) ،

(١) حاشية الجل على الجلالين - ٤ ص ١٥٣

(٢) تفسير ابن كثير ص ٧ ص ٢٠٤

وقوله - سبحانه - : « والله يعلم أعمالكم ، بيان لعلمه الشامل - سبحانه - وتهديد لمن يجترح السيئات ، أى : والله - تعالى - يعلم أعمالكم علما تاما كاملا ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - سنة من سننه فى خلقه فقال : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

أى : ولنعاملكم - أيها الناس - معاملة المختبر لكم بالتكاليف الشرعية المتنوعة ، حتى نبين ونظهر لكم المجاهدين منكم من غيرهم ، والصابرين منكم وغير الصابرين « ونبلو أخباركم ، أى : ونظهر أخباركم حتى يتميز الحسن منها من القبيح .

فالمراد بقوله : « حتى » نعلم المجاهدين .. ، لإظهار هذا العلم للناس ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وصحيح العقيدة من سقيمها .

ولمّا هنا نجد الآيات الكريمة قد هدت المنافقين تهديدا شديدا ، وبمختمهم على مسالكهم الذميمة ، وفرضتهم على رموس الشهاد ، وحذرت المؤمنين من ضرورهم .

• • • •

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالدعوة إلى صلاح الأعمال ، وتهديد الكافرين بالعذاب الشديد ، وبتبشير المؤمنين بالثواب الجزيل ، وبدعوتهم إلى الإكثار من الإنفاق فى سبيله ... فقال : - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ إِنَّهُمْ يَكُونُونَ اللَّهُ حَبْطًا مَحْجُوطًا أَمْ هُمْ (٣٧) يَأْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا

(٧ - سورة محمد)

أَعْمَالِكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَخْلَونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَإِبْتِلَاءٍ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَيْمُنُوا وَتَتَّقُوا يُوَفِّقْكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّضْكُمْ يُبْخِلُوا وَيُخْرِجْ أَصْفَانَكُمْ (٣٧) هَآ أَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنُسْأَلُكُمْ مِنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

والمراد بالذين كفروا في قوله : : - تعالى - : : إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله جميع الكافرين ، كشركي قريش ، والمنافقين ، وأهل الكتاب .

أى : إن الذين كفروا بكل ما يجب الإيمان به ، وصدوا ، غيرهم عن الإيمان بالحق ، و سبيل الله ، الواضح المستقيم .

د شاقوا الرسول ، أى : عادوه وخالفوه وآذوه . وأصل المشاقة : أن نصير فى شق وجانب وعدوك فى شق وجانب آخر ، والمراد بها هنا : العداوة والبغضاء .

وقوله : : من بعد ما تبين لهم ، ذم وتجهيل لهم ، حيث حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - من بعد أن ظهر لهم أنه على الحق ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

وقوله : : لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ، بيان للآثار السيئة التى ترتبت على هذا الصدود والعداوة .

أى : هؤلاء الذين كفروا ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله ، وحاربوا

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، هؤلاء لن يضروا الله - تعالى - شيئاً بسبب كفرهم وضلالهم ، وسيبطل - سبحانه - أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، وظنوها نافعة لهم ، كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ..

لأن هذه الأعمال قد صدرت من نفس كافرة ولن يقبل - سبحانه - عملاً من تلك النفوس ، كما قال - تعالى - : « وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

وكما قال - سبحانه - : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

ثم وجه - سبحانه - فداء إلى المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ومراقبته فقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، أطيعوا الله - تعالى - في كل ما أمركم به ، وأطيعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا تبطلوا ثواب أعمالكم . بسبب ارتكابكم للمعاصي ، التي على رأسها النفاق والشقاق ، والمن والرياء ، وما يشبه ذلك من ألوان السيئات .

عن أبي العالية قال : كان أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يظنون أنه لا يضر مع ، لا إله إلا الله ، ذنب ، كما لا يرفع مع الشرك عمل ، فنزلت هذه الآية . تخفوا أن يبطل الذنب العمل » .

ورى نافع عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت هذه الآية . فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والمواحيش . حتى نزل قوله - تعالى - : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

فلما نزلت كففتنا من القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر

والفواحش ، و نرجو لمن لم يصبها (١) ،

ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين استمروا على كفرهم حتى ماتوا عليه فقال : « إن الذين كفروا ، باق - تعالى - ، وبكل ما يجب الإيمان به .

« وصدوا عن سبيل الله ، أى : ومنعوا غيرهم عن الطريق التى توصلهم إلى طاعة الله ورضاه .

« ثم ماتوا ، جميعا « وهم كفار ، دون أن يقلعوا عن كفرهم .
« فلن يغفر الله لهم ، شيئا من ذنوبهم ، لأن استمرارهم على الكفر حال بينهم وبين المغفرة .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى معناها قوله - تعالى - :
« إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ، .

والفاء فى قوله : « فلا تهنوا » تدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون . ، فصيحة والخطاب للمؤمنين على سبيل التبشير والتثبيت والحض على مجاهدة المشركين .
أى : « إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن الله - تعالى - لن يغفر للكافرين .. « فلا تهنوا ، أى : فلا تضعفوا - أيها المؤمنون - أمامهم ، ولا تخافوا من قتالهم .. من الوهن بمعنى الضعف وفعله وهن بمعنى ضعف ، ومنه قوله - تعالى - : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابوا فى سبيل الله .. ، .

وقوله : « وتدعوا إلى السلم ، معطوف على « تهنوا ، داخل فى حيز النهى .
أى فلا تضعفوا عن قتال الكافرين ، ولا تدعوا إلى الصلح والمصالحة على سبيل الخوف منهم ، وإظهار العجز أمامهم ، فإن ذلك نوع من إعطاء الدنية التى تأبأها تعاليم دينكم .

وقوله : « وأنتم الأعلى ، والله معكم ، ولن يتراكم أعمالكم ، جل سالية .

أى : لا تضعفوا ولا تستكينوا لأعدائكم والحال أنكم أنتم الأعلى ، أى : الأكثر قهرا وغلبة لأعدائكم ، والله - تعالى - معكم بعونه ونصره وتأييده .

« ولن يترك أعمالكم ، أى : ولن ينقصكم شيئا من أجور أعمالكم . يقال : وترت فلانا حقه - من باب وعد - ، إذا نفصته حقه ولم تعطه له كاملا . وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلا ، أو سلبت منه ماله .

قالوا : وحمل النهى عن الدعوة إلى صلح الكفار ومسامحتهم ، إذا كان هذا الصلح أو تلك المسالمة تؤدي إلى إذلال المسلمين أو إظهارهم بمظهر الضعيف القابل لشروط أعدائه .. أما إذا كانت الدعوة إلى السلم لا تضر بمصلحة المسلمين فلا بأس من قبولها ، عملا بقوله - تعالى - : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ... » ،

ثم بين - سبحانه - ما يدل على هوان هذه الدنيا فقال : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، .

قال الجل : يعنى كيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة ، وقد علم أن الدنيا كلها لعب ولهو ، إلا ما كان منها فى عبادة الله - تعالى - وطاعته .

واللعب : ما يشغل الإنسان فيه منفعة فى الحال أو المآل إذا استعمله الإنسان ولم ينتبه لأشغاله المهمة فهو اللعب ، وإن أشغله عن مهمات نفسه فهو اللهو ، (١) .

« وإن تؤمنوا ، إيماننا حقا ، وتتقوا ، الله - تعالى - ، يؤتكم أجوركم ،

كاملة غير منقوصة . ولا يسألكم أموالكم ، أى : ولا يأمركم سبحانه أن تخرجوا جميع أموالكم على سبيل دفعها في الزكاة المفروضة ، أو في صدقة التطوع ، فالسؤال بمعنى الأمر والتكليف ويصح أن يكون المعنى : ولا يسألكم رسولكم - صلى الله عليه وسلم - شيئاً من أموالكم ، على سبيل الأجر له على تبليغ دعوة ربه ، كما قال - تعالى - : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » .

فالضمير على المعنى الأول يعود إلى الله تعالى ، وعلى الثاني يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم أشار - سبحانه - إلى جانب من حكمته في تشريعاته فقال : « إن يسألكموها فيحلفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » .

وقوله « يحلفكم » من الإحفاء بمعنى الإلحاف ، وهو المبالغة في الطلب . يقال : أحفاء في المسألة ، إذا ألح عليه في طلبها إلحاحاً شديداً ، ومنه قوله - تعالى - : « لا يسألون الناس إلحافاً ... » وأصله من أحفيت البعير ، إذا أرهقته في المشى حتى انهوى ورق خفه .

أى : إن يكلفكم بإخراج جميع أموالكم ، ويبالغ في طلب ذلك منكم ، تبخلوا بها فلا تعطوها ، وبذلك « يخرج أضغانكم » أى : يظهر أحقادكم وكرهيةكم لهذا التكليف ، لأن حبكم الجمل للمال يجعلكم تكرهون كل تشريع يأمركم بإخراج جميع أموالكم .

فقوله « فيحلفكم » عطف على فعل الشرط ، وقوله « تبخلوا » جواب الشرط ، وقوله : « ويخرج أضغانكم » معطوف على هذا الجواب .

ثم تختتم السورة السكريمة بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله فقال : « ها أنتم هؤلاء » - أيها المؤمنون - « تدعون لتنفقوا في سبيل الله ، أى : في وجوه الخير التي على رأسها الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .

« فنسكم من يبخل » أى : فنسكم - أيها المخاطبون - من يبخل بماله عن

الإففاق في وجوه الخير ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، أى : ومن يبخل فإنما يبخل عن داعى نفسه لا عن داعى ربه . أو ، فإنما يبخل على نفسه . يقال : بخل عليه وعنه - كفرح وكرم - بمعنى ، لأن البخل فيه معنى المنع والإمساك ومعنى التضييق على من منع عنه المعروف . فعدى بلفظ ، عن ، نظرا للمعنى الأول ، ولفظ ، على ، نظرا للمعنى الثانى .

« والله ، - تعالى - وهو الغنى وأتم الفقراء ، إليه ، لاحتياجكم إلى عونه احتياجا تاما ، وإن تتولوا ، أى : وإن تعرضوا عن هذا الإرشاد الحكيم . يستبدل قوما غيركم ، أى : يخلق بدلکم قوما آخرين .

« ثم لا يکونوا أمثالکم ، أى : ثم لا يکونوا أمثالکم فى الإعراض عن الخير ، وفى البخل بما آتاهم الله من فضله .

والتأمل فى هذه الآية براها قد اشتملت على أسمى ألوان الدعوى إلى الإيمان والسخاء ، والنهى عن الجحود والبخل .

وبعد فهذا تفسير وسيط لسورة محمد - صلى الله عليه وسلم - نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه

القاهرة - مدينة نصر محمد سيد طنطاوى

مساء الأربعاء ٦ / ٣ / ١٤٠٦ هـ

١٨ / ١٢ / ١٩٨٥ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ الْفَتْحِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الفتح من السور المدنية ، وعدد آياتها تسع وعشرون آية ، وكان نزولها في أعقاب صلح الحديبية .

قال ابن كثير - رحمه الله - : نزلت سورة الفتح ، لما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقتل عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكبره من جماعة من الصحابة (١)

٢ - والمتدبر للقرآن الكريم ، يرى كثيرا من آياته وسوره ، في أعقاب بعض الغزوات ، ليتعلم المسلمون من تلك الآيات والسور ما ينفعهم وما يصلح من شأنهم

فمثلا في أعقاب غزوة بدر ، نزلت سورة الأنفال التي سماها ابن عباس سورة بدر .

وفي أعقاب غزوة أحد ، نزلت عشرات الآيات في سورة آل عمران .

وفي أعقاب غزوة بن النضير ، نزلت آيات من سورة الحشر .

وفي أعقاب غزوة الأحزاب ، نزلت آيات من سورة الأحزاب .

وفي أعقاب صلح الحديبية نزلت هذه السورة الكريمة ، التي تحكى الكثير من الأحداث التي تتعلق بهذا الصلح .

٣ - وقبل أن نبدأ في تفسير هذه السورة الكريمة ، نرى من الخير أن نعطي القارئ فكرة واضحة عن صلح الحديبية ، الذي نزلت في أعقابه هذه

السورة .. فنقول - وبالله التوفيق -

رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في منامه أنه قد دخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، وقد صرحت السورة الكريمة بذلك في قوله - تعالى - : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فقص - صلى الله عليه وسلم - هذه الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا بها ، وكان المشركون قد منعهم من دخول مكة ، ومن الطواف بالمسجد الحرام .

٤ - - وخرج - صلى الله عليه وسلم - معه حوالى أربعائة وألف من أصحابه ، ليس معهم من السلاح سوى السيوف فى أعمادها ، وساقوا معهم الهدى الذى يتقربون بذبحه إلى الله - تعالى - ليكون دليلا على أنهم لا يريدون حرب قريش ، وإنما يريدون الطواف بالبيت الحرام .

وسار - صلى الله عليه وسلم - من المدينة إلى مكة ، فلما وصل إلى عسفان ، وهو مكان بين مكة والمدينة - جاءه بشر بن سفيان الكهبي وكان مكلفا من قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعرفة أخبار قريش فقال يارسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل - أى : ومعهم الإبل التى ولدت ، قد لبسوا جلود النور - أى : قد استعدوا لقتالك وقد نزلوا بذى طوى - وهو مكان بالقرب من مكة - ، أماهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا . .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا ويح قريش !! لقدأكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لوخلوا بينى وبين سائر العرب ، فإنهم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم ، دخلوا فى الإسلام ، وأفرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة - أى أو أن أقل فى سبيل الله .

ثم قال - صلى الله عليه وسلم - من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال رجل من قبيلة أسلم : أنا يارسول الله ، فسلك بهم طريقا وعرا ،

انتهى بهم إلى ، الحديبية ، وهي قرية على بعد مرحلة من مكة ، أو هي بئر
سمى المكان بها .

• - وفي هذا المكان بركت القصواء - وهي الناقة التي كان يركبها النبي
- صلى الله عليه وسلم - ، فقال الناس : خلأت الناقة - أي : جرت وأبت
المشي - ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن
حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش إلى خطبة يسألوني فيها صلة
الرحم ، إلا أعطيتهم إياها . .

ثم أمر - صلى الله عليه وسلم - الناس بالنزول في هذا المكان ...

٦ - وعلمت قريش بنزول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه في
الحديبية ، فبدأوا يرسلون رسلهم لمعرفة الأسباب التي حملت المسلمين إلى الحج .
وكان من بين الرسل بديل بن ورقاء الخزاعي . . . فلما سأل الرسول
- صلى الله عليه وسلم - عن سبب مجيئه إلى مكة ، أخبره أنه لم يأت يريد حرباً
ولأنما جاء زائراً للبيت الحرام ، ومعظماً لحرمة ...

وعاد بديل إلى مكة ، وأخبر المشركين بما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - .
ولكنهم لم يقتنعوا ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً . والله لا يدخلها
علينا عنوة أبداً

٧ - ثم أرسلت قريش رسلاً آخرين إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - .
كان من بينهم ، عروة بن مسعود الثقفي . . فكان مما قاله للرسول - صلى الله
عليه وسلم - : يا محمد ، أجمعت أو شاب الناس - أي : أخلاطهم - ثم جئت بهم
إلى أمك ... إن قريشاً قد تماهدت أنك إن تدخل عليهم مكة عنوة ...

وكان عروة خلال حديثه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمد يده
إلى لحيته - صلى الله عليه وسلم - فكان المغيرة بن شعبه يقرع يد عروة ويقول
له : اكفف تدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك ...

وشاهد عروة ما شاهد من احترام المسلمين لرسولهم صلى الله عليه وسلم ،

فعاد إلى المشركين وقال لهم : يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه ،
والنجاشي في ملكه ، وإني واقفة مارأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ،
ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم

٨ - ثم أرسل النبي صلى الله عليه وسلم - إلى قريش عثمان بن عفان - رضي الله
عنه - لكي يخبرهم بأن المسلمين ما جاءوا الحرب ، وإنما جاءوا للطواف بالبيت .
وذهب إليهم عثمان وأخبرهم بذلك ، ولكنهم صمموا على منع المسلمين من
دخول مكة ، وقالوا لعثمان : إن شئت أنت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال لهم : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
وطال مكث عثمان عند قريش ، حتى أشيع بين المسلمين أنه قد قتله المشركون .
فقال صلى الله عليه وسلم - حين بلغه أن عثمان قد قتل - : « لا أبرح حتى
تفاجز القوم » ودعا المسلمين إلى مبايعته على الموت ، فبايعه المسلمون على
ذلك تحت شجرة الرضوان ...

ثم جاء عثمان بعد ذلك دون أن يصيبه أذى ...

٩ - وأخيرا أوفدت قريش إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلا منهم
اسمه سهيل بن عمرو ، ليعقد صلحا مع المسلمين ، وقالوا له : أنت محمد أفصالحه ،
ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فوافق لا تحدث الحرب عنا
أنه دخلها علينا عنوة أبدا ...

وعندما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - سهيلا مقبلا نحوه ، قال لأصحابه :
لقد سهل الله لكم من أمركم . إن قريشا أرادت الصلح حين بعثت هذا الرجل .
وتم الصلح بين الفريقين على ما يأتي :

أولا : أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت هذا العام . فإذا كان العام
التالي : أخلت قريش لهم مكة ثلاثة أيام . ليطوفوا بالبيت . وليس معهم إلا
السيوف في غمدها ...

ثانيا : أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنوات .

ثالثا : من أتى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قريش مسلما بغير إذن وليه زده لإيهم . ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه .

رابعا : من أحب أن يدخل في عقد مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فله ما أراد . ومن أحب أن يدخل في عهد قريش فله ذلك

ولقد عز على بعض المسلمين قبول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهذه الشروط ، التي ظاهرها الظلم للمسلمين ، حتى قال عمر - رضى الله عنه - للرسول - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فقال : - صلى الله عليه وسلم - : بلى . فقال عمر : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : داني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ،

ثم أشار - صلى الله عليه وسلم - إلى المسلمين أن يتحللوا من عمرتهم ، بأن ينحروا هديهم ، وأن يحلقوا رؤوسهم أو يقصروا . ولكنهم لم يسارعوا بالإمتثال ، فدخل - صلى الله عليه وسلم - على زوجته أم سلمة - رضى الله عنها - ، وقد ظهر الغضب على وجهه .

فقالت له يا رسول الله : أعذركم ، وأبدأ بما تأمرهم به دون أن تكلم منهم أحدا .

فقام - صلى الله عليه وسلم - فنحر هديه ، ودعا حالقه لحلق له ، فلما رأى المسلمون ذلك من فيههم ، قاموا فنحروا هديهم ، وجعل بعضهم يحلق بعضا .

ثم أقام المسلمون بعد ذلك عدة أيام بالحديبية ، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة ، وعندما سمع - صلى الله عليه وسلم - بعضهم يقول : لقد رجعنا ولم نصنع شيئا ... ،

قال - صلى الله عليه وسلم - : بل فتحتم أعظم الفتح ، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله هذا ، فقد كن صلح الحديبية فتحا عظيما ، كما تبين ذلك عند تفسيرنا للسورة الكريمة .

وبهذا العرض المجمع لأحداث صلح الحديبية، نكون قد أعطينا القارىء
فكرة مركزية عن هذا الصلح، وعن الجو العام الذى نزلت فى أعقابه رسوة
الفتح، ومن أراد المزيد لمعرفة أحداث صلح الحديبية فليرجع إلى كتب
السيرة... (١)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. محمد سيد طنطاوى

١٩٨٥/١٢/٢١ م

١٤٠٦/٤/٩ هـ

(١) راجع سيرة ابن هشام ٣ من ص ٢٥٥ إلى ص ٢٧٨ وتفسير
ابن كثير ٧ ص ٢٢٧.

التفسير

قال الله - تعالى - : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُفْغِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَجَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُمِذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنَّ السُّوءَ ، عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) » .

افتتحت سورة الفتح ، بهذه البشارات السامية ، والمدائح العالية للنبي صلى الله عليه وسلم - افتتحت بقوله - تعالى - : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » ،

والفتح في الأصل : إزالة الأغلاق عن الشيء . وفتح البلد : المقصود به الظفر به ، ووقوعه تحت سيطره الفاتح .

والذي عليه المحققون من العلماء أن المراد بالفتح هنا : صلح الحديبية وما ترتب عليه من خبرات كثيرة ، ومنافع جملة للمسلمين .

ويشهد لذلك أحاديث متعددة منها : ما أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

عليه وسلم - ، وكان قد خرج اليها - صلى الله عليه وسلم - يوم الإثنين هلال
 ذى القعدة ، فأقام بها بضعة عشر يوماً ، ثم قفل راجعاً إلى المدينة ، فبينما نحن
 نسير إلى المدينة إذ أتاه الوحي - وكان إذا أتاه اشتد عليه - فصرى عنده
 من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أنزل عليه : **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .**
 وروى الإمام أحمد وأبو داود عن مجمع بن جارية الأوسى قال : شهدنا
 الحديبية ، فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - واقفاً
 ههنا كراع الغميم - موضع بين مكة والمدينة - وقد جمع الناس وقرأ عليهم :
« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . :. الآيات »

فقال رجل : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : **أى
 والذي بنفسى بيده إنه لفتح (١)**

وينى بعضهم : أن المراد بالفتح هنا : فتح مكة ، والتعيير عند الماضى
 فى قوله **« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً »** لتحقيق الوقوع ، فهو من قبيل قوله - تعالى -
« أتى أمر الله فلا تستعجلوه . . . » ويبدوا لنا أن المراد بالفتح هنا صلح
 الحديبية ، لوجود الآثار الصحيحة التى تشهد لذلك ، ولأن هذا الصلح قد
 ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله من أعظم الفتوح ، إن لم
 يكن أعظمها .

لقد ترتب عليه أن انتشر الأمان بين المسلمين والمشركين ، فاستطاع
 المسلمون أن ينشروا دعوة الحق فى مكة وفى غيرها ، كما استطاعوا أن ينتقلوا
 من مكان إلى آخر للتبشير بدينهم ، فترتب على ذلك أن دخل فى الإسلام عدد
 كبير من الناس .

قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين
 اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم
 خاق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام ،

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠٧ وتفسير الألوسى ج ٢٦ ص ٨٣

قال ابن هشام : والدليل على صحة قول الزهري ، أن رسول الله - صلى عليه وسلم - خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج إلى مكة في عام الفتح - بعد ذلك بستين - في عشرة آلاف من أصحابه .

وقد أكد - سبحانه - هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات ، وهي : إن ، والمصدر ، فتحة ، والوصف ، مبيها ، ، وذلك للدسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقيق هذا الفتح ، ولإدخال السرور على قلوبهم ، بعد تلك الشروط التي اشتمل عليها الصلح ، والتي ظننا بعضهم أن فيها لإجفا بالمسلمين .

وأسند - سبحانه - الفعل إلى نون العظمة ، فتحنا ، لتفخيم شأن الخبر - عز وجل - وعلو شأن الخبر عنه وهو الفتح .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ، لك ، على المفعول المطلق ، فتحنا ، للاهتمام والإشمار بأن ذلك الفتح كان من أجله - صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك ما فيه من تعظيم أمره - صلى الله عليه وسلم - ومن وجوب طاعته ، والامتثال لأمره .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال : : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا ،

واللام في قوله : ليغفر ، متعلقة بقوله : ، فتحنا ، وهي للتعليل . والمراد بما تقدم من ذنبه - صلى الله عليه وسلم - ما كان قبل النبوة ، وبما تأخر منه ما كان بعدها ،

والمراد بالذنب هنا بالنسبة له - صلى الله عليه وسلم - : ما كان خلاف الأولى ، فهو باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . أو المراد بالغفران : الحيلة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه - صلى الله عليه وسلم - ذنب ، لأن غفران الذنوب معناه : سترها وتغطيتها وإزالتها .

قال الشوكاني : وقوله - تعالى - : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، الاله : متعلقة بفتحنا وهي لام العلة . قال المبرد : هي لام كي ومعناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا - أي ظاهر واضحا مكشوفاً - لكي يجمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح ، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي .

وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكانها لام الصيرورة ... ، (١)

وقال بعض العلماء : وقوله : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، هو كناية عن عدم المؤاخذه . أو المراد بالذنب ما فرط منه - صلى الله عليه وسلم - من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه - صلى الله عليه وسلم - أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه ذنب ، لأن الغفر هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب ، وهو اللائق بمقام النبوة . أو بين الذنب وعقوبته ، وهو اللائق بغيره .

واللام في : ليغفر ، للعلّة الغائية . أي : أن مجموع المتعاضفات الأربعة غاية للفتح المبين ، وسبب عنه لا كل واحد منها .

والمدني يصرنا لك هذا الفتح لإتمام النعمة عليك ، وهدايتك إلى الصراط المستقيم ، ولنصرك نصراً عزيزاً .

ولما أمتن الله عليه بهذه النعم ، صدرها بما هو أعظم ، وهو المغفرة الشاملة ليجمع له بين عزي الدنيا والآخرة . فليست المغفرة مسببة عن الفتح ، (٢) واقد كان - صلى الله عليه وسلم - مع هذه المغفرة من الله - تعالى - له ، أعبد الناس لربه ، وأشدهم خوفاً منه ، وأكثرهم صلة به .

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٤٤ للشوكاني .

(٢) تفسير صفوة البيان ج ٢ ص ٣٣٣ لفصيلة الشيخ حسين مخلوف .

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلي حتى ترم قدماه أي : تتورم - فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ،

وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه .. أي : تتشقق .. فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ، (١)

وقوله .. تعالى .. ويتم نعمته عليك ، معطوف على ما قبله . أي : ويتم سبحانه .. نعمه عليك .. أيها الرسول الكريم ، بأن يظهر دعوتك ، ويكتب لها النصر ، والخلود ، ويعطيك من الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء ، فضلا عن غيرهم .

ويمد يدك صراطا مستقيما ، أي ويمد يدك ويرشدك .. سبحانه .. بفضلته وكرمه إلى الطريق القويم ، والدين الحق ، والأقوال الطيبة . والأعمال الصالحة . وينصرك الله ، - تعالى .. نصرا عزيزا ، أي : نصرا قويا منيعا لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، لأنه من خالقك الذي لا يراد لقضائه ، ولا معقب الحكمة .

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله - تعالى - قد أكرم نبيه - صلى الله عليه وسلم - إكراما لا يدانيه إكرام ، ومنحه من الخير والفضل ما لم يمنحه لأحد سواه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين فقال : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ..

والسكينة : من السكون ، والمراد به الثبات والطمأنينة التي أودعها
 — سبحانه — في قلوب المؤمنين ، فترتب على ذلك أن أطاعوا الله ورسوله ،
 بعد أن ظنوا أن في شروط صلح الحديبية ظلما لهم ، وأن بايعوا النبي - صلى الله
 عليه وسلم — على الموت بعد أن بلغهم أن عثمان — رضى الله عنه — قد قتله
 المشركون . وفي التعبير عن ذلك بالإيزال ، إشعار بعلو شأنها ، حتى لمكانها
 كانت مودعته في خزائن رحمته الله — تعالى — ، ثم أنزلها بفضلها في قلوبهم
 بعد ذلك .

أى : هو — سبحانه — بفضلها ورحمته ، الذي أنزل السكينة والطمأنينة
 والثبات في قلوب المؤمنين ، فأنشروا صدورهم لهذا الصلح بعد أن ضاقت
 في أول الأمر .

وقوله : : ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، تعليل لهذا الإيزال للسكينة .

أى : أوجد السكينة وخلقها في قلوبهم ، ليزدادوا يقينا على يقينهم ،
 وتصديقا إلى تصديقهم ، وثباتا على ثباتهم .

وشبيه بهذا الآية قوله - تعالى - : : إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ،
 وقوله - سبحانه - : : وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه
 إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، أن الإيمان يزيد وينقص .

قال الألوسي ما ملخصه : قال البخارى : لقيت أكثر من ألف رجل من
 العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ،
 ويزيد وينقص .

واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل . أما العقل فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة
 الإيمان لسكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسوق والمعاصي ، مساويا
 لإيمان الأنبياء ، واللازم باطل ، فكذا الملزوم . . .

وأما الثاني : فلكثرة النصوص في هذا المعنى ، ومنها الآية التي معنا وأمثالها . ومنها ما روى عن ابن عمر قال : قلنا : يا رسول الله ، إن الإيمان يزيد وينقص ، قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخله النار . وقال الإمام النووي وغيره : إن الإيمان بمعنى التصديق القلبي ، يزيد وينقص - أيضا - بكثرة النظر ، ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم (١)

ثم بين سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : « والله جنود السموات والأرض وكان الله عليا حكيما » .

أى : « والله - تعالى - وحده جنود السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس . . . إذا لكل تحت قهره وسلطانه ، فهو . سبحانه . الذى يدبر أمرهم كيف شاء . ويدفع بعضهم ببعض كما تقتضى حكمته وإرادته . وهو . تعالى . العليم بكل شيء . الحكيم فى جميع أفعاله . . . »

والإلام فى قوله . سبحانه . : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار . . . » متعلقة بمحذوف ، أو بقوله : « فتحنا . . . »

أى : فعل - سبحانه - ما فعل من جعل جنود السموات والأرض تحت سيطرته وملكه ، ومن دفع الناس بعضهم ببعض ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحت الأنهار . « خالدين فيها ، خلودا أبديا » ويكفر عنهم سيئاتهم ، التى فعلوها فى دنياهم ، بأن يغفرها لهم ، ويزيلها عنهم ، بل ويجوئها لمن شاء منهم بفضله وكرمه إلى حسنات .

« وكان ذلك ، الإدخال للمؤمنين الجنة ، وتكفير سيئاتهم . . . »

« عند الله » - تعالى - « فوزا عظيما ، لا يقادر قدره ، لأنه نهاية آمال المؤمنين ، وأقصى ما يتمناه العقلاء المخلصون . »

« ويمذب » - سبحانه - بعد له « المنافقين والمنافقات ، والمشركين
والمشركات . الظانين بالله ظن السوء . . . »

أى : الظالمين بالله - تعالى - وبرسوله وبالمؤمنين الظن السيء بأن توهموا
أن الدائرة ستدور على المؤمنين وأنهم هم الذين سينتصرون . أو أنهم هم على
الحق . وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه على الباطل
فقوله : « السوء » صفة لموصوف محذوف . أى : الظانين بالله ظن
الآمر السوء .

وقوله - تعالى - « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم بأن ينزل بهم ما توقعوه
للمؤمنين من سوء .

أى : عليهم وحدهم ينزل ما يتمنونه للمؤمنين من شر وسوء .

والدائرة فى الأصل : تطلق على الخط المحيط بالشيء . ثم استعملت فى
النازلة المحيطة بمن نزلت به . وتستعمل أكثر ما تستعمل فى المصائب والمبكاره .

قال صاحب الكشف : قوله « عليهم دائرة السوء » أى : ما يظفونه
ويتوقعونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ، ودائر عليهم . والسوء : الهلاك والدمار .

فإن قلت : هل من فرق بين السوء والسوء ؟ قلت : هما كالكره والكراهه .
والضعف والضعف : من ساء ، إلا أن المفتوح غلب فى أن يضاف لإياه ما يراد
ذمه من كل شيء . وأما السوء بالضم ، فجاء بجرى الشر الذى هو نقيض الخير .^(١)

ثم قال - تعالى - : « وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم
وساءت مصيرا » .

أى : لبس عليهم دائرة السوء فقط ، بل وفضلا عن ذلك فقد غضب الله
- تعالى - عليهم ، وطردهم من رحمته ، وأعد لهم فى الآخرة نار جهنم ، وساءت
هذه النار مصيرا لهم .

ثم أكد - سبحانه - ملكيته لكل شيء فقال: «وَلِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اِلٰهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» .

أى: «ولله - تعالى - وحده جنود السموات والأرض، وكان - سبحانه -
وما زال غالب على كل شيء» ، «حكيمًا في كل أوامره ونواهيه» ، «وفى كل
تصرفاته وأفعاله» .

ولما كان المقصود من ذكر الجنود هنا: تهديد المنافقين والمشركين ،
وأنهم في قبضته - تعالى - ، ناسب أن تذيل الآية هنا بقوله: «وكان الله
عزيرًا حكيمًا» ، لأن العزة تقتضى الغلبة للغير .

ولما كان المقصود من ذكر الجنود فى الآية الرابعة ، بيان أن المدبر
لهذا الكون هو الله - تعالى - ، ناسب أن تذيل الآية هناك بقوله - سبحانه - :
«وكان الله عليها حكيمًا» .

• • •

ثم حدد الله - تعالى - الوظيفة التى كلف بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - ،
وبشر المؤمنين الذين وفوا بعهودهم بالأجر العظيم فقال :

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) تَتُوبُونَ اِلَیْهِ رَاسُودَةً
وَتُؤْمِرُونَهُ وَتُقَرَّرُونَ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِیْنَ
یُؤْمِنُونَکَ إِنَّمَا یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ ، یَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِیْهِمْ ، فَتَنْکَسُ فَاِئْمَانًا
یَنْکَسُ عَلٰی نَفْسِہِ ، وَمَنْ أَوْفٰی بِعَٰہِدَہٗ عَلَیْہِ اللّٰهُ ، فَسِیَؤُتِیْہِ
أَجْرًا عَظِیمًا (١٠)» .

وقوله: «مبشرا» من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم
له بهذا الأمر .

وقوله: «ونذيرا» من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر الخيف ، لئلا
يجتنب ويحذر .

أى : « إنا أرسلناك ، - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتسكنوا
« شاهدة ، لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم
رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .

ولتسكنوا ، مبشرا ، للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ، ونذيرا ،
للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم .
والحكمة في جملة - صلى الله عليه وسلم - شاهدة مع أن الله - تعالى -
لا يخفى عليه شيء : إظهار العدل الإلهي للناس في صورة جليلة واضحة ، وتكريم
النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذه الشهادة .

وجمع . سبحانه . بين كونه صلى الله عليه وسلم ، مبشرا ونذيرا ، لأن من
الناس من ينفعه الترغيب في الثواب ، ومنهم من لا يزرجه إلى التخويف من العقاب .
وانتصاب « شاهدة ومبشرا ونذيرا ، على الحال المقدرة .

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « وكذلك
جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا .
وقوله - سبحانه - : « ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم
وجئنا بك شهيدا على هؤلاء . . . »

وقوله - عز وجل - : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .
ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله - صلى الله عليه وسلم - فقال :
« لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا .
وقوله : « وتعزروه ، من التعزيز بمعنى النصرة مع التعظيم والتفخيم .
وقوله : « وتوقروه ، أى : تعظموه وتقدروه .

وقوله : « وتسبحوه ، من التسميح بمعنى التنزيه . تقول : سبحت الله
- تعالى - ، أى : زهته عما لا يليق به . ود البكرة ، أول النهار ود الأصيل ،
آخره . والمراد ظاهرهما ، أو جميع أوقات النهار ، كما يقال : شرقا وغربا
بجميع الجهات .

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأمته ، كقوله - تعالى - :
 « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ... ، والقراءة بتاء الخطاب ، هي قراءة الجمهور
 من القراء . »

قال الآلوسی : وهو من باب التغليب ، غلب فيه المخاطب على الغائب ،
 فيفيد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مخاطب بالإيمان برسائله كأمته ... ، (١).

أى : أرسلناك - أيها الرسول الكريم - شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتكون
 على رأس المؤمنين بما أرسلناك به . ولتنبئك في ذلك أصحابك ومن سيأتي
 بعدهم ، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا ، ولينصروك ويعظموك ،
 وليسبحوا الله - تعالى - في الصباح والمساء . وعلى هذا يكون الضمير في قوله
 - تعالى - « وتعزروه وتوقروه » ، يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
 وفي قوله « وتسبحوه » ، يعود إلى الله - تعالى - .

قال القرطبي ماملخصه : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وليؤمنوا ، وكذلك
 « يعزروه ويوقروه ويسبحوه » ، كله بالياء على الخبر ...

وقرأ الباقر بالتاء على الخطاب ... والهاء في قوله : « وتعزروه
 وتوقروه » ، للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهنا وقف تام . ثم تبتدىء بقوله :
 « وتسبحوه » ، أى تسبحوا الله بكرة وأصيلا .

وقيل الضمائر كلها لله - تعالى - ، فعلى هذا يكون تأويل : « تعزروه
 وتوقروه » ، أى : تثبتوا له صحة الربوبية ، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو
 شريك ... ، (٢).

ثم مدح - سبحانه - الذين عاهدوا الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير الآلوسی ج ٢٦ ص ٩٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٦٦ .

سورة الفتح

ووفوا بعهودهم أكمل وفاء ، فقال : ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله

وقوله - سبحانه - : ، يبايعونك ، من المبايعة أو من البيعة ، بمعنى المهادنة أو العهد ، وسميت المهادنة مبايعة ، لاشتغال كل واحدة منهما على معنى المبادلة ، وعلى وجوب الصدق والوفاء .

والمراد بهذه المبايعة ، ما كان من المؤمنين في صلح الحديبية ، عندما طاهدوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الثبات وعلى مناجزة المشركين بعد أن أشيع أنهم قتلوا عثمان - رضى الله عنه - .

أى : إن الذين يبايعونك على الموت أو على عدم الفرار عند لقاء المشركين ، إنما يبايعون ويعاهدون الله - تعالى - على ذلك قبل أن يبايعوك أنت ، لأن المقصود من هذه البيعة إنما هو طاعته - سبحانه - وامتثال أمره ، كما قال - تعالى - : ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ، .

فالمقصود بقوله : ، إنما يبايعون الله ، تأكيد وجوب الوفاء بما طاهدوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليه من الثبات وعدم الفرار ، والطاعة له في كل ما يأمرهم به .

وقوله - سبحانه - : ، يد الله فوق أيديهم ، زيادة في تأكيد وجوب الوفاء . ومذهب السلف في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات : أنه يجب الإيمان بها ، وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله - تعالى - ، وترك تأويلها مع تزويجها - تعالى - عن حقيقتها ، لاستحالة مشابته - تعالى - بالحوادث ، كما قال - سبحانه - : ، ليس كمثل شيء . وهو السميع البصير ، .

أما الخلف فذهبهم تأويل هذه الصفات على معنى يليق بجلاله ، فيؤولون اليد هنا بالقوة أو القدرة ، أى : قوة الله - تعالى - وقدرته ونصرته فوق

قوتهم ونصرتهم ، كما يقال : اليد في هذه المسألة لفلان ، أى : الغلبة والنصرة له .

أو المعنى : يد الله - تعالى - بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق أيديهم ...

والمقصود بهذه الجملة - كما أشرنا - زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والتهات .

قال صاحب الكشف : لما قال - سبحانه - : « إنما يبايعون الله » أكد تأكيداً على سبيل التمثيل ، فقال : « يد الله فرق أيديهم » يريد أن يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي تعلق أيدي المبايعين : هي يد الله ، والله - تعالى - مزمع عن الجوارح وعن صفات الأجسام ..

ولأنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - كمعقده مع الله - تعالى - ... ، (١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الناكثين فقال : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » أى : فمن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه ، فإنما عاقبة نقضه يعود وبأهله وشؤمها عليه .

فقوله « ينكث » مأخوذ من النكث - بكسر النون - وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها ، وقوله : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتیه أجراً عظيماً » أى : ومن ثبت على الوفاء بما عاهد الله - تعالى - عليه ، فسيؤتيه - سبحانه - من فضله أجراً عظيماً على ذلك .

والهاء في قوله : « عليه » قرأها حفص بالضم ، توصلاً إلى تفخيم لفظ الجلالة ، الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام . وقرأها الجمهور بالكسر . هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة ، تصرح بأن الذين كانوا مع النبي

- صلى الله عليه وسلم - في صلح الحديبية قد بايعوا جميعا النبي - صلى الله عليه وسلم - على الموت أو على عدم الفرار ، سوى جماعة من المنافقين ، امتنعوا عن هذه البيعة ، لمرض قلوبهم ، وسوء طويتهم ...

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة . قيل : على أي شيء ؟ قال : على الموت .

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أنه مثل : كم كان عددكم يوم الحديبية ؟ قال : كننا أربع عشرة مئة ، فبايعنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أن لا نفر - سوى الجدن بن قيس فإنه اختفى تحت بطن بعيره ، ولم يسرع مع القوم ...

وهكذا فاز المؤمنون الصادقون بشرف هذه البيعة - وحرم منها المنافقون لمرض قلوبهم .

* * *

ثم انتقلت السورة السكينة إلى الحديث عن المتخلفين ، الذين لم يخرجوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى صلح الحديبية ، فتحكى أعارهم الزائفة ، وتفضحهم على ردوس الأشهداد ، وترد على أقوالهم الباطلة ، وتأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عنهم ، وإهمال أمرهم ، فهم قوم استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله ...

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى

أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّهُ السَّوَاءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
 بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
 سَعِيرًا (١٣) وَفَعَلَ مُلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ
 مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْخَلْفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى
 مَغَائِمٍ لَتَأْخُذْهَا ذُرُوءًا تَتَّبِعُكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبْذِلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُلْ
 إِن تَتَّبِعُونَا ، كَذَلِكَ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ . فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ
 كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ
 إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا
 يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
 أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
 الْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) .

قال الإمام الرازي ماملخصه : لما بين - سبحانه - حال المنافقين ، ذكر
 المتخلفين - بعد ذلك - فإن قوما من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة ، لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا : أهل مكة
 قاتلوه على باب المدينة ... فكيف يذهب إليهم ... واعتذروا عن الخروج
 معه - صلى الله عليه وسلم - ... (١)

والخلفون : جمع مخلف ، وهو المتروك في مكان خلف الخارجين من البلد
 كالنساء والصبيان ، فإنهم في العادة لا يخرجون مع الرجال للجهاد . وير عنهم
 بالمخلفين على سبيل الذم لهم

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٥٤١ .

والأعراب : أمم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابي ، والأثني أعرابية ، والمقصود بهم هنا سكان البادية من قبائل غفار ، ومزينة ، وجبينة ، وأشجع وأسلم ، والدليل ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة ، ليساعده على إقناع قريش في الإذن بدخول مكة للطواف بالبيت الحرام ... ولكنهم اعتذروا .

وقوله - سبحانه - سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ... ، إعلام من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بما سيقوله هؤلاء المتخلفون له ، بعد عودته إليهم من صلح الحديبية .

أي : سيقول المخلفون لك - أيها الرسول الكريم - : إننا ما غفلنا عنك باختيارنا ، ولكن انشغالنا بحفظ ورعاية أموالنا ونسائنا وأولادنا الصغار ، حال بيننا وبين الخروج معك إلى الحديبية ، ومادام الأمر كذلك فاستغفر لنا ، الله - تعالى - لكي يغفر لنا ذنوبنا التي وقعنا فيها بسبب هذا التخلف الذي لم يكن عن تكاسل أو معصية لك .

ولما كان قولهم هذا لم يكن صحيحا ، فقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم .

أي : هم ليسوا صادقين فيما يقولون ، والحق أنهم يقولون قولا من أطراف السنتهم ، دون أن تؤيده قلوبهم ، فإن السبب الحقيقي لعدم خروجهم معك ، هو ضعف إيمانهم ، ومرض قلوبهم ، وتذبذب نفوسهم ... فالجمل السكرية تكذيب لهم فيما قالوه ، وفضيحة لهم على رؤوس الأشهاد .

ثم أمر الله - تعالى - أن يجاههم بقوله : وقل فن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نقما ... ، والاستفهام للانكار والنفي .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المتخلفين من الأعراب ، لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم قضاء الله - تعالى - ، إن أراد بكم ما يضركم من قتل أو هزيمة ، أو إن أراد بكم ما ينفعكم ، من نصر أو غنيمة لأن قضاء الله - تعالى - ، لا دافع له ، كما قال - سبحانه - : « ما يفتح الله للناس من رحمته فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ... »

ثم أضرب - سبحانه - عن ذلك ، وقال : « بل كان الله بما تعملون خبيراً ، أى : إن تخلفكم ليس سببه ما زعمتم ، بل الحق أن تخلفكم كان بسبب ضعف إيمانكم ، والله - تعالى - مطلع على أحوالكم اطلاعاً تاماً ، وسيجازيكم بما تستحقون . »

ثم أكد - سبحانه - كذبهم بإضراب آخر عن أقوالهم فقال : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذاك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ، والبور في الأصل مصدر كالهالك ، يوصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . »

وهو هنا مستعمل بمعنى اسم الفاعل . وقيل هو جمع بار ، كحائل وحول . قال صاحب الكشف : والبور من بار ، كالهالك من هلك بناء ومعنى ، ولذلك وصف هذا الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ويجوز أن يكون جمع بار كعائد وعوذ ، (١) .

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المخلفون - من أن أموالكم وأولادكم هي التي شغلتكم عن الخروج مع رسولكم - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن الحق أنه ظننتم أن العدو سيستأصل شافة المؤمنين بالقتل والإهلاك . وأنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى أهلهم أبداً ...

زين الشيطان هذا الظن الماسد في قلوبكم ، ومكنه من نفوسكم . فقهتم

في دياركم ، وظننتم ، في كل ما يتعلق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وباتباعه الصادقين ، وظن السوء ، أى : الظن الذى كله سوء وشر ومذكر ...

وكنتم ، في علم الله - تعالى - وحكمه وقوماً بوراً ، أى : قوماً هالكين فاسدين ، لا تصلحون لشيء من الخير ، ولا نستحقون إلا الخزي والعقاب .

فأنت ترى أن الله ، تعالى ، قد ذم هؤلاء المتخلفين وفضحهم وتوعدهم بسوء المصير ، لأسباب متعددة ، منها : سوء ظنهم بالله ، تعالى ، وبرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ففقد توهموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون على يده أعدائهم ، وأنهم لن يعودوا إلى أهلهم أبداً .

ومنها : اعتذارهم بالكاذب ، بانشغالهم بأموالهم وأهلهم ..

ومنها : تعمد الكذب ، وتفوههم بالكلام الذى لا تؤيده ألوهم .

ثم ختم ، سبحانه ، هذا الذم والتهديد للمتخلفين بقوله : « ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعدنا للكافرين سعيراً » .

أى : ومن لم يؤمن بالله ، تعالى ، لإيماننا حقاً ، ويصدق الرسول ، صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به من عنده ، ويطيعه في كل ما أمر به أو نهى عنه ، عاقبناه عقاباً شديداً ، فإننا قد هيأنا للكافرين نارا مسعرة ، تحرق الأبدان ، وتشوى الوجوه ...

ثم بين ، سبحانه ، أنه هو المالك لكل شيء فقال : « والله ملك السموات والأرض ، خلقا وتصرفا » يفقر لمن يشاء ، أن يغفر له ، ويعذب من يشاء ، أن يعذبه .

« وكان » - سبحانه - وما زال « غفورا ، أى : « واسع المغفرة » رحيماء ، أى : « أى واسع الرحمة » .

ثم عادت السورة السكرية إلى حكاية أقوال هؤلاء المناقين ، وإلى الرد عليها ، فقال تعالى : « يقول المخلفون إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها فزونا نتبعكم »

والمراد بالخلفين هنا : السابقون الذين وصفوا بأنهم من الأعراب ،
فاللام للعهد .

أى : سيقول المخلفون عن الخروج معك يا محمد إلى مكة ، بعد أن غاب
ظنهم فرجعتم سالمين إليهم بعد صلح الحديبية ، - يقولون لك ولأصحابك :
« ذرونا تتبعكم ، أى : اتركونا لنسير معكم ، لنشار ككم فى جمع الغنائم التى
تناولونها من أعدائكم .

فقوله « ذرونا ، بمعنى اتركونا ودعونا .

قال الألوسى : والمراد بالمغانم هنا : مغانم خيبر - كما عليه عامة المفسرين -
ولم تقف على خلاف فى ذلك ، وأيد بأن السنين تدل على القرب ، و« خيبر
أقرب المغانم التى انطلقوا إليها من الحديبية - كما علمت - ، فأرادتها كالمتمينة ،
وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن الله - تعالى - وعد أهل الحديبية أن يعوضهم
عن مغانم مكة مغانم خيبر ، إذا قفلوا مواد عين لا يصيبون شيئاً . . . (١)

وقد كان رجوع النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من صلح الحديبية
فى ذى الحجة من السنة السادسة ، وخروجهم إلى خيبر كان فى المحرم من
السنة السابعة ، وقد أصاب المسلمون من خيبر غنائم كثيرة ، وقد جعلها
- صلى الله عليه وسلم - لمن شهد معه صلح الحديبية دون غيرهم .

وقوله : « يريدون أن يبدلوا كلام الله ، أى : يريد هؤلاء المخلفون بقولهم
« ذرونا تتبعكم ، أن يغيروا حكم الله - تعالى - الذى حكم به ، وهو أن غنائم
خيبر خاصة لمن شهد صلح الحديبية ، أما هؤلاء المخلفون فلا نصيب لهم فيها .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الرد الذى يخرسهم فقال :
« قل لن تتبعونا كذلككم قال الله من قبل

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الخلقين - على سبيل الإقناط والتبئيس والجزر - لا تتبعونا ونحن متجهون إلى خير أفتحها . فالنبي في قوله : ان تتبعونا ، بمعنى النهى للبالغة في منعهم من الخروج مع المؤمنين إلى خير .

وقوله : : كذلك قال الله من قبل ، أى : مثل هذا النهى الصادر . فى قد قاله الله - تعالى - من قبل رجوعنا من الحديبية ، فقد أمرنى بمنعكم من الخروج معى إلى خير ، وبحرمانكم من غنائمها ، عقابا لكم على معصيتكم لى ، وعلى سوء ظنكم بى وبأصحابى ...

ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد مجابتهم بتلك الحقيقة فقال : : فسيقولون بل نحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا .

أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - بعد منعك لإياهم من الخروج معكم إلى خير ، وبعد أن ذكرت لهم حكم الله فيهم ... سيقولون لك على سبيل السفاهة وسوء الأدب : أنتم أيها المؤمنون تريدون بسبب هذا المنع من الخروج معكم إلى خير ، أن نحسدوننا ونمنعوننا حقنا فى الغنيمة ، والله - تعالى - لم يأمركم بمنعنا ، وإنما أنتم الذين فعلتموه حسدا لنا .

وقوله : : بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ، لإضراب عن قولهم هذا على سبيل التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - أى : ليس الحق كما زعموا ، بل الحق أنهم قوم دأبهم الحق والجهالة ، ولا يفقهون من أمور الدين إلا فقها قليلا ، لا يسمن ولا يفنى من جوع .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين حرق الإضراب ؟ قلت : الأول لإضراب معناه : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثانى : لإضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما

هو أطم منه ، وهو الجبل وقلة الفقه ، (١) .

ثم فتح - سبحانه - أمام هؤلاء المخلفين من الإعراب باب التوبة ، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يدعوهم إلى الجهاد معه ، فإن صدقوا أفلحوا ، وإن أعرضوا خسرنا فقال : : قل للمخلفين من الإعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المخلفين من الإعراب عن الخروج معك ، استدعون في المستقبل إلى القتال معي ، لقوم أصحاب قوة وشدة في الحرب ، فيكون بينكم وبينهم أمران لثالث لهما : إما القتال لهم ، وإما الإسلام منهم . فأوفى قوله ، أو يسلمون ، لا يبيع والحصر . وجملة : تقاتلهم أو يسلمون ، مستأنفة للتعليل ، كافي قوله : سيدعوك الأمير للقائه ، يكرمك أو يحزى عدوك . وقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم أولى البأس الشديد ، فمنهم من قال : فارس والروم . ومنهم من قال : بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب . والذي عليه المحققون من العلماء أن المقصود بهم : هو وزن وثقيف الذين التقى بهم المسلمون في غزوة حنين بعد فتح مكة .

وذلك لأن عددا كبيرا من تلك القبائل المتخلفة قد اشتركت في تلك الغزوة ، حتى لقد بلغ عدد المسلمين فيها ما يقرب من اثني عشر ألفا ، ولأن أهل هوازن وثقيف قد كانوا يجيدون الرماية والكر والفر ، فاستهزاءوا في أول المعركة - بعد أن اغتر المسلمون بقوتهم - أن يفرقوا بعض صفوف المسلمين ، ثم تجمع المسلمون بعد ذلك وانصروا عليهم ، ثم كانت النتيجة أن انتهت تلك الغزوة بإسلام هوازن وثقيف ، كما هو معروف في كتب السيرة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان بين المسلمين وبين هوازن وثقيف من قتال في قوله - تعالى - : : لقد نصركم الله في موطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تغن عنكم شيئا ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ،

ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب للذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم ، (١) .

وقد رجح فضيلة شيخنا الدكتور أحمد السيد السكوى أن يكون المقصود بالقوم أولى البأس الشديد هو ازن وثقيف ، فقال ماملخصه : وتكاد تتفق كتب السيرة على أن الجيش الذي ذهب لفتح مكة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى غزو هوازن وثقيف يوم حنين ، كان يضم بين جوانحه العدد الكثير من قبائل : أسلم وأشجع وجهينة وغفار ومزينة ...

ولإذن فالأمر المحقق أن القبائل المتخلفة يوم الحديبية ، ساهمت في الجهاد بقسط وافر يوم فتح مكة ، ويوم حنين

وقد أقام المسلمون بمكة بعد أن فتحوها - بدون قتال يذكر - خمسة عشر يوما ... ثم ذهبوا لقتال هوازن وثقيف وكانوا رماة مهرة ذوى مهارة حربية ، ودراية بفنون القتال . فهزموا المسلمين في أول الأمر ، ثم هزمهم المسلمون . ومن كل ذلك يترجح الحكم بأن هؤلاء القوم هم هوازن ، وأن كثيرا من المخلفين أسلم لإسلاما غالبا ، وحسنت توبته ... ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ، بيان للثواب العظيم الذى أعده - سبحانه - للطائفتين ، وللعذاب الاليم الذى توعده به الفاسقين .

أى : فإن تطيعوا - أيها المخالفون - رسولكم - صلى الله عليه وسلم - يؤتكم الله من فضله أجرا حسنا ، وإن تتولوا وتمرضوا عن الطاعة ، كما عرضتم من قبل فى صلح الحديبية عن طاعته ، يعذبكم - سبحانه - عذابا أليما .

(١) سورة التوبة الآيات ٢٥ - ٢٧

(٢) راجع تفسير سورة الفتح ص ٨٩ وما بعدها لفضيلة أستاذنا الدكتور أحمد السكوى .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات برفع الحرج عن الذين تخلفوا لأعداء حقيقية فقال : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج »

أى : ليس على هؤلاء إثم فى التخلف عن الجهاد ، لما بهم من الأعذار والعاهات المرخصة لهم فى التخلف عنه .
« ومن يطع الله ورسوله ، فيما أمرا به أو نها عنه ، يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول عن طاعتهما يعذبه ، الله - تعالى - عذابا أليما ، لا يقادر قدره . »

• • •

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين الصادقين ببشارات متنوعة ، ومدحهم مدحا عظيما ، وبين - سبحانه - أن سنته فى خلقه لن تتخلف ، فقال - تعالى - :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٩) وَعَدَّكُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ، وَاتَّكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيكُمْ صِراطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا بُحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) »

واللام في قوله - تعالى - : : لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة هي الموطئة للقسم . وتسمى هذه البيعة ببيعة الرضوان .

والشجرة : كانت بالحديبية ، وقد جاس - صلى الله عليه وسلم - تحتها لبايع أصحابه على الموت أو على عدم الفرار ، فبايعوه على ذلك - ما عدا بعض المنافقين - ، وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحنها ، ويدعون الله - تعالى - . . . فأمر عمر - رضى الله عنه - بقطعها خشية الافتتان بها .

أى : والله لقد رضى الله - تعالى - عن المؤمنين الذين بايعوك - أيها الرسول الكريم - تحت الشجرة ، على الموت من أجل إعلاء كلمة ربهم . . . وفي هذه الجاه أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان ، وهو رضا الله - تعالى - عنه . ودخوله في ذمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته - سبحانه - ورحمته .

قال الألوسى - رحمه الله - : والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة . وقوله - سبحانه - : تحت الشجرة ، متعلق ببايعونك . . . وفي التقييد بذلك إشارة إلى مراد وقع تلك المبايعة في النفوس . . . ولذا استوجبت رضا الله - تعالى - الذى لا يبادل شئ ، ويستتبع ما لا يكاد يخطر على البال . ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر . ومسلم عن أم بشر عنه ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : : لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة ، . . .

وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر ، أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : أتم خير أهل الأرض . . . (١) . وقوله - تعالى - : فلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم . وأناهم فتحنا قريبا ، بشارة أخرى لهؤلاء المؤمنين الصادقين .

أى : لقد رضى - سبحانه - عن الذين بآبوعوك تحت الشجرة - أيها الرسول الكريم - ، حيث علم ما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص وإيثار الآخرة على الأولى ، فأنزل السكينة والطمأنينة والأمان عليهم ، وأتابهم ، أى : وأعطاهم ومنحهم فتحا قريبا ، وهو فتح خيبر ، الذى كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين :

وقيل المراد به : فتح مكة . والاول أرجح ، لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه ، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة . وقد أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى تلك الغنائم فقال : « ومغانم كثيرة ياخذونها »

أى : وأتابكم مغانم كثيرة تأخذونها من خيبر .

« وكان الله ، - تعالى - وما زال ، عزيزا ، أى : غالبا ، حيا ، فى كل أفعاله وأحكامه .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها . . . » ، أيها المؤمنون من أعدائكم فى مستقبل أيامكم .

« وعد صدق الله - تعالى - وعده معهم ، فلقد غنموا بعد ذلك من بلاد فارس والروم وغيرهما .

والإشارة فى قوله « فجعل لكم هذه » ، تعود إلى مغانم خيبر ، كما روى عن مجاهد - وعليه يكون المراد بالناس فى قوله : « وكف أيدي الناس عنكم » ، أهل خيبر وحلفائهم من بنى أسد وغطفان حين جاؤا لنصرة يهود خيبر ، فالتقى الله الخوف فى قلوبهم جميعا .

وبرى بعض المفسرين أن الإشارة فى قوله : « فجعل لكم هذه » ، إلى صلح الحديبية وقد روى ذلك عن ابن عباس .

وعليه يكون المراد بالناس فى قوله : « وكف أيدي الناس عنكم » ، مشركو قريش ، أى : منهم من حربكم ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب منكم .

ويبدو لنا أن هذا الرأي الذي قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - هو الأقرب إلى الصواب ، لأنه يتسق مع سياق الآيات ، ولأنه يؤكد أن صلح الحديبية كان فتحاً ومفتحاً ، كان فتحاً بدليل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمن شك في ذلك : « أى والذي نفسى بيده إنه لفتح ، وكان مغنياً لأن المسلمين غنموا من ورائه انتشار الدعوة الإسلامية في آفاق الأرض .

واللام في قوله : « ولتكون آية للمؤمنين ، متعلقة بمحذوف ، أى : فعل ما فعل من التمجيل والكف لتكون تلك النعم والبشارات علامات للمؤمنين على رعاية الله تعالى - لهم ، ورضاه عنهم . .

« ويهديكم ، أيها المؤمنون ، صراطاً مستقيماً ، أى : طريقاً واضحاً قوياً ، به تصلون إلى ما تبتغونه من عزة وأمان .

وقوله : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » معطوف على هذه . .

أى : فجعل لكم هذه المغانم ، وعجل لكم مغانم أخرى ، لم تقدروا على الحصول عليها قبل ذلك لبعدها عن أن تنالها أيديكم . وقد أحاط الله بها لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء . « وكان الله على كل شيء قديراً . .

وتختلف الأقوال في هذه المغانم الأخرى ، فمنهم من يرى أنها فتح مكة ، ومنهم من يرى أنها فتح خيبر ، ومنهم من يرى أنها مغانم هوازن وثقيف ، ومنهم من يرى أنها مغانم المسلمين من الفرس والروم

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال أولها ، لأنه ترتب على هذا الصلح في الحديبية أن فتحت مكة بعد سنتين منه ، بسبب نقض المشركين له ، وقد تم فتحاً بدون قتال يذكر ، بعد أن حدث ما حدث بين المسلمين وبين مشركي مكة من قتال انتصر فيه المسلمون تارة كفزوة بدر ، وانتصر فيه المشركون أخرى كفزوة أحد

فالمسلمون لم يقدرُوا على دخول مكة إلا في عام الفتح ، وبعد أن أحاط

الله - تعالى - بها بقدرته التي لا يغلها شيء ، وبعد أن استعصت على المسلمين
 زمنا طويلا ، وقد سلمها - سبحانه - لهم بأقل أنواع القتال ، وكان الله على
 كل شيء قديرا .

والذي يتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - ، قد بشر
 المسلمين الذين شهدوا صلح الحديبية ببشارات متعددة .

بشرم - أولا - برضاه عنهم - وهذه أسمى بشارة وأعلاها . .

وبشرم - ثانيا - بتفضله عليهم بمنحهم السكينة والطمأنينة التي تجعلهم
 في ثبات وأمان . .

وبشرم - ثالثا - بفتوحات وغنائم منها القريب العاجل ، ومنها الآجل
 المتحقق ، الذي يكاد لتحقيقه أن يشاهده بأعينهم ، لأن الله - تعالى - وعده به
 ووعد لا يتخلف .

ثم بشرم - رابعا - بأنهم هم المنصورون لأن سنته قد اقتضت ذلك ، فقال :
 « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار . . . » ، وتولية الأدبار كناية عن
 الهزيمة ، لأن المنهزم يعطى ظهره لمن انتصر عليه .

أى ولو قاتلكم الذين كفروا وأتم على تلك الحالة من قوة الإيمان ،
 وصدق العهد ، وإخلاص النية ، وحسن الاستعداد ، ومباشرة الأسباب . .
 لولوا الأدبار أمامكم ، ثم لا يجدون وليا ، يعنيهم ، ولا نصيرا ، ينصرم .

وقوله « سنة الله التي تدخلت من قبل . . . » ، زيادة في تثبيتهم وفي إدخال
 السرور على قلوبهم . . .

ولفظ « سنة » منصوب على المصدرية بفعل محذوف . أى : من الله
 انتصار أهل الحق على أهل الباطل سنة قديمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض
 ومن عليها .

« ولن نجد ، - أيها العاقل - ، لسنة الله ، - تعالى - ، تبديلا ، أو تغييرا
أو تحويلا .. »

وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « ولقد سبق
كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ، ^(١) . »

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة من نعمه التي أنعمها عليهم في رحلتهم هذه
التي انتهت بصلح الحديبية فقال : « وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وأيديكم
عنهم ، ببطن مكة ، من بعد أن أظهركم عليهم . . . » .

والمراد ببطن مكة : الحديبية ، وسميت بذلك لأنها قريبة من مكة .

أي : وهو - سبحانه - الذي منع المشركين - بقدرته وحكمته - من
مهاجمتكم والاعتداء عليكم ، ومنعكم من مهاجمتهم وقتالهم ، في هذا المكان
القريب من مكة ، وكان ذلك بعد أن نصركم عليهم ، وجعلكم أعلى منهم في
القوة والحجة والثبات ، وكان - سبحانه - وما زال - بما تعملون بصيرا ، .

وقد ذكروا في هذا الظفر روايات منها ما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن
أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وأصحابه . ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح ، من قبل جبل التنعيم ،
يريدون غرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا عليهم ، فأخذوا فعفا
عنهم ، فنزلت هذه الآية . . . ، ^(٢) .

فآية الكريمة تذكركم من الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، بحاجب من نعمه
عليهم ، ورحمته بهم .

وهو تذكركم بتعلق بأمور شاهدها بآعينهم ، وعاشوا أحداثها ،

(١) سورة الصافات . الآيات ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٢٣ . وتفسير الألوسي ٢٦ ص ١١١ .

وعندما يأتي التذكير بالأمور المشاهدة المحسوسة ، يكون أدعى إلى الشكر لله
- عز وجل - .

• • •

ثم ذكروهم - سبحانه - بنعمة أخرى من نعمه عليهم ، وكشف لهم عن
جانب من حكمته في منع القتال بينهم وبين مشركي مكة ، وفي هدايتهم إلى هذا
الصلح فقال :

«مُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا
أَنْ يَبْلُغَ الْحَجَّ ، وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
تَطَّارُوهُمْ فَيَنصِبِيكُمْ مِنْهُمْ مَرَّةً بَعِيرٌ عِلْمٌ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا ،
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) » .

والمراد بالذين كفروا في قوله - تعالى - : هم الذين كفروا وصدوكم . .
مشركو قريش ، الذين منعوا النبي - صلى الله عليه وسلم - من دخول مكة ،
ومن الطواف بالبيت الحرام .

والهدى : مصدر بمعنى المفعول . أى : المهدي . والمقصود به ما يهدي إلى
بيت الله الحرام من الإبل والبقر والغنم ، ليذبح تقرباً إلى الله - تعالى - وكان
مع المسلمين في رحلتهم هذه التي تم فيها صلح الحديبية سبعين بدنه - على
المشهور - . ولفظ الهدى قرأه الجمهور بالنصب عطفاً على الضمير المنصوب
في قوله ، صدوكم ، وقرأه أبو عمرو بالجر عطفاً على المسجد .

وقوله : د مـ كـوفا ، أى : محبوسا . يقال : عكفه يـعـكفه عكفا ، إذا حبسه ومنه الاعتـكاف فى المسجد ، بمعنى الاحتباس فيه ، وهو حال من الهدى .

وقوله : د أن يبلغ محله ، منصوب بنزع الخافض ، أى : عن أن يبلغ محله .
أى : مكانه الذى يذبح فيه وهو منى .

والتعبير بقوله : د هم الذين كفروا . . . ، نصريح بذهمهم وتوبيخهم على موقفهم الماشين من المؤمنين ، الذين لم يأتوا إلى مكة لحرب ، وإنما أتوا لأداء شعيرة من شعائر الله .

أى : هم فى ميزان الله واعتباره الكافرون حقا . لأنهم صدوكم ومنعوكم - أيها المؤمنون - عن دخول المسجد الحرام ، وعن الطواف به ، ولم يكتفوا بذلك . بل منعوا الهدى المحبوس من أجل ذبحه على سبيل التقرب به إلى الله - تعالى - من الوصول إلى محله الذى يذبح فيه فى العادة وهو منى .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله : د و الهدى مـ كـوفا ، أى : محبوسا . . . أن يبلغ محله . . . أى : منجره . . . والمحل - بالكسر - غايد الشئ . . . وبالفتح : هو الموضع الذى يحلّه الناس . وكان الهدى سبعين بدنة ، ولكن الله - تعالى - بفضلّه جعل ذلك الموضع - وهو الحديبية - له محلا .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . . .

وفى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدنة وحلق رأسه . . . ، (١) .

وقوله - تعالى - : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطؤم فنصيبكم منهم معرفة بغير علم . . . » بيان لحكمة الله - تعالى - في منع الحرب بين الفريقين .

وجواب « لولا » محذوف لدلالة الكلام عليه . والمراد بالرجال المؤمنين وبالنساء المؤمنات : سبع رجال وامرأتان كانوا بمكة .

قال الآلوسی : وكانوا على ما أخرج أبو نعیم بسند جيد وغيره عن أبي جمعة جنبذ بن سبع - تسعة نفر : سبعة رجال - وهو منهم - وامرأتين .

وجملة « لم تعلموا » صفة رجال ونساء على تغليب المذكر على المؤنث . وقوله « أن تطؤم » بدل اشتغال من رجال ونساء . والوطء الدوس ؛ والمراد به هنا : الإهلاك .

وقوله : « مرة » أي : مكروه وأذى . يقال ، عره يعره عرا ، إذا أصابه بمكروه ، وأصله من العر وهو الجرب .

والمراد به هنا : تعيير الكفار للمؤمنين بقولهم : لقد قتلتم من هم على دينكم . والمعنى ، ولولا كراهة أن تهلكوا - أيها المؤمنون - أناسا مؤمنين موجودين في مكة بين كفارها ، وأنتم لا تعرفونهم ، فيصيبكم بسبب إهلاكهم مكروه ، لولا كل ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة ، بل لسلطكم عليهم لكي تقتلهم .

واللام في قوله - سبحانه - : « ليدخل الله في رحمته من يشاء » متعلقة بما يدل عليه جواب لولا المقدر .

أي : لولا ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة ، ولكنه - سبحانه - كف أيديكم عنهم ، ليدخل في رحمته بسبب هذا الكف من يشاء من عباده ، وهى رأس هؤلاء العباد ، المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة ، والذين اقتضت

رحمته أن يتم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار ، وبفك أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب . .

كذلك قد شملت رحمته - تعالى - بعض كفار مكة ، الذين تركوا بعد ذلك الكفر ودخلوا في الإسلام ، كأبي سفيان وغيره من الذين أسلموا بعد فتح مكة أو بعد صلح الحديبية .

وقوله - سبحانه - : « لوتزيلوا لعذبتنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » ، تأكيد لما دل عليه الكلام السابق ، من أن حكمته - تعالى - قد اقتضت كف أبدى المؤمنين عن الكافرين ، رحمة بالمؤمنين الذين يعيشون في مكة مع هؤلاء الكافرين .

وقوله « تزيلوا » أي : تميزوا . يقال : زلته زبلا ، أي : مزته . وزيله فزيل أي : فرقه ففترق أي : لوتميز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات الذين يعيشون في مكة عن كفارها وفارقهم وخرجوا منها ، وانعزلوا عنهم ، لعذبتنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ، تارة عن طريق إهلاكهم ، وتارة عن طريق إذلالهم وأخذهم أسرى . و « من » ، في قوله « منهم » ، للبيان لا للتبويض .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المشركون من جهالات وحماقات استولت على نفوسهم فقال : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » .

والظرف « إذ » منصوب بفعل مقدر . والحمية : الأنفة والتكبر والفروور والتعالي بغير حق . يقال حمى أنفه من الشيء - كرضى - إذا غضب منه ، وأعرض عنه .

أي : واذكر - أيها العاقل - وقت أن تمسك الكافرون وقيدوا أنفسهم بالحمية الباطلة ، التي هي حمية المسئلة الجاهلية ، حيث منعوا المسلمين من دخول مكة ، ومن الطواف بالمسجد الحرام ، وحيث منعوا الهدى من أن يبلغ مكة ،

وحيث أبوا أن يكتب في الصحيفة التي عقدت بينهم وبين المسلمين ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أو محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... فهذا كله من سميتهم الجاهلية التي لا أساس لها من علم أو خلق أو دين ...

وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ... » معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين حال الفريقين ، مقابلة تتجلى فيها رعايته - سبحانه - للمؤمنين . وغضبه على الكافرين .

أي : هذا هو حال الكافرين ، رسخت الجهالات في قلوبهم حتى صرفتهم عن سبيل الرشd ، أما حال المؤمنين فإنهم قابلوا تصرفات هؤلاء الكافرين بالاحتقار والازدراء ومباينة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - على الموت إذا لزم الأمر ذلك .

فأنزل الله - تعالى - طمأنينته وسكينته على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى قلوب أصحابه ، حيث لم يجعلهم يقابلون سفاهات المشركين بسفاهات مثلها ...

« وألزمهم كلمة التقوى ، أي : وجعلهم ملزمين بما تقتضيه كلمة التقوى ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، من أناة وسكون وثبات ووقار وخلق كريم وإخلاص في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله .

« وكانوا أحق بها وأهلها ، أي : وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار ، وكانوا أهلها دون الكفار ، لأن المؤمنين استجابوا للحق . أما الكافرون فقد أنفوا منه ، وتناولوا عليه ، بمقتضى حميتهم الجاهلية ... » وكان ، - سبحانه - وما زال « بكل شيء علماً ، لا يخفى عليه أمر ، ولا يغيب عن علمه شيء ... » والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى ألوماً من المقابلات التي تدل على مدح الله - تعالى - للمؤمنين ، وعلى احتقاره للكافرين .

فقد عبر - سبحانه - في جانب الكافرين بكلمة جدل إلى تشعير بأن

الكافرين كأنهم قد ألقوا هذه الحمية الجاهلية في قلوبهم إنا. بدون تعقل أو تدبر ، بينما عبر في جانب المؤمنين بكلمة أنزل التي تشعر كأن السكينة كانت في خزائنه - تعالى - ثم أنزلها بعد ذلك على قلب رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيماناً على إيمانهم .

ونرى الفاعل الجمعل هو الذين كفروا ، بينما الفاعل لأنزل هو .الله - عز وجل -

ونرى المفعول لجلل هو الحمية ؛ وهي كلمة مشتعلة متفجرة ، وقد كررها - سبحانه - ليزداد العقلاء نفورا منها ... ونرى المفعول لأنزل هو السكينة وهي كلمة فيها ما فيها من الوقاء والسكون والثبات والطمأنينة .

ونرى الحمية قد أضيفت إلى الجاهلية ، بينما السكينة أضيفت إلى الله - تعالى -

ونرى أن الله - تعالى - قد أضاف كل ذلك مدحا عظيما لعباده المؤمنين حيث ألزمهم كلمة التقوى ، وجعلهم أحق بها وأهلا لها دون أعدائهم الذين آثروا الفئ على الرشد ، والباطل على الحق ... وفي ذلك ما فيه من الفناء على المؤمنين والتحقيق للكافرين .

ثم أكد الله تعالى - صدق ما شاهده النبي .. صلى الله عليه وسلم - في رؤياه ، وبين الحكمة التي من أجلها أرسله إلى الناس كافة فقال - تعالى - :

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَبَشَّرَ مِنْ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) » .

قال الألوسي ما ملخصه : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المنام قبل خروجه إلى الحديبية ، أنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا ، وظنوا أنهم سيدخلونها في عامهم هذا ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حق . فلهذا تأخر ذلك قال بعض المذاقة - على سبيل التشكيك والاعتراض - ، والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية .

وقد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال نحو ذلك - على سبيل الفهم والاستكشاف - ليزداد بقیته ..

والصدق يكون بالقول ويكون بالفعل ، ومافى الآية صدق بالفعل ، وهو التحقيق ، أى حقق - سبحانه - الرسول رؤيته ... ، (١)

وقوله ، بالحق ، صفة لمصدر محذوف ، أى : صدقا ملتبسا بالحق : أو بمحذوف على أنه حال من الرؤيا ، أى : رؤيا ملتبسة بالحق .

والمعنى : والله لقد أرينا رسولنا محمدا - صلى الله عليه وسلم - الرؤيا الصادقة التى لا تتخلف ، ولا يحوم حولها ريب أو شك ، وحققنا له ما إشتهلت عليه هذه الرؤيا من بشارات سارة . وعطايا كريمة ، على حسب ما اقتضته حكمتنا وارادتنا .

وقوله : ولتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين ومقصرين لا تخافون ... جواب لقسم محذوف ، وقوله : آمنين ، وما بعده ، حال من قائله لتدخلن ...

أى : والله لتدخلن - أيها المؤمنون - المسجد الحرام فى عامكم المقبل إن شاء الله ، حالة كونكم آمنين من كل فزع ، وحالة كونكم بعضكم يخلق شعر

رأسه كله ، وبعضكم يكتفى بقص جزء منه ، وحالة كونكم لا تخافون أذى المشركين بعد ذلك .

وقوله : (إن شاء الله) فيه ما فيه من الإشعار بأن الرؤيا مع صدقها ، تحقيقها موكل إلى مشيئة الله - تعالى - وإلى قدرته ، لا إلى أحد سواه وفيه ما فيه من تعليم الناس وإرشادهم إلى أنهم يجب عليهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه عند إرادتهم لفعل من الأفعال ، كما قال - تعالى - (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ...)

قال بعض العلماء : إن الله - تعالى - استثنى فيما يعلم ، ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون .

ويرى بعضهم : أن الاستثناء هنا لتحقيق الخبر وتأكيده .

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الخلق غير متعين في الفسك ، بل يجرى منه التقصير ، إلا أن الخلق أفضل ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين ، قال اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين ، قال اللهم اغفر للمحلقين ... ثم قال بعد الثالثة : والمقصرين .

واستدل بها - أيضا - على أن التقصير للرأس دون اللحية ، ودون سائر شعر البدن ، إذ الظاهر أن المراد : ومقصرين شعر رؤوسكم (هـ) ..

وقوله : (لا تخافون) تأكيد وتقرير لقوله (آمنين) أي : آمنين عند دخولكم مكة للعمرة ، ولا تخافون بعد إتمامها ، لأن عناية الله - تعالى - ورعايته معكم ...

وقوله : (فعمل ما لم تعلموا) فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ، بيان للحكمة

في تأخير دخولهم مكة عام الحديبية، وتمكينهم من دخولها في العام الذي يليه. والجملة الكريمة معطوفة على قوله : « لقد صدق الله رسوله ... » أي : والله لقد حقق الله - تعالى - لرسوله رؤياه في دخول مكة ، وليكن في الوقت الذي يشاؤه ويختاره وتقتضيه حكمته لأنه - تعالى - علم ما لم تعلموه أنتم من أن المصلحة في عدم دخولكم مكة في عام صلح الحديبية ، وأن هذا الصلح هو خير لكم من دخولها ، لما يقترب عليه من منافع كثيرة لكم ، وقد جعل - سبحانه - بفضلته وإحسانه « من دون ذلك ، أي : من قبل دخولكم مكة ، وطوافكم بالمسجد الحرام ، فتحا قريبا ، هو فتح خيبر الذي خرجتم منه بالغنائم الوفيرة ، أو هو فتح خيبر ومعه صلح الحديبية ، الذي قال فيه الزهري لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ... »

هذا ، وقد بسط الإمام ابن كثير ما أصابه المسلمون بعد صلح الحديبية من خيرات فقال مالم يخلصه : ورجع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية في ذي القعدة من السنة السادسة .. ثم خرج في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر ، ففتحها الله - تعالى - عليه ...

فلما كان في ذي القعدة من السنة السابعة ، خرج إلى مكة معتمرا ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وصاق معه الهدى ... وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قريها ... فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون ، وعبد الله ابن رواحه أخذ بزمام ناقه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينشد ويقول : خلوا بني الكفار عن سبيله إلى شهيد أنه رسوله

وخرج المشركون من مكة لكي لا يروا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، أما النساء والأطفال فقد جلسوا على الطرق ينظرون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإلى المؤمنين ..

ومكث الرسول وأصحابه بمكة ثلاثة أيام ، اعتمر خلالها هو وأصحابه ، ثم

عادوا إلى المدينة (١) .

وهكذا تحققت رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الوقت الذي أرادته - سبحانه - ، ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ... »

أى : هو - عز وجل - وحده ، الذي أرسل رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - لإرساله ملتبساً بالهدى ، أى : بالدليل الواضح والبرهان الساطع الذي يهdy للطريق التي هى أقوم ..

وأرسله - أيضا - بالدين الحق وهو دين الإسلام ، الذى هو خاتم الأديان وأكملها ، « ليظهره على الدين كله ، أى : من أجل أن يظهره ويعليه على جميع الأديان ، لما فيه من هدايات ، وعبادات ، وآداب ، وأحكام ، وتشريعات .. » قد جمعت محاسن الأديان السابقة التى جاء بها الأنبياء ، وأضافت إليها جديدا اقتضته حكمة الله - تعالى - ورحمته بهذه الأمة التى أرسل رسوله محمدا إليها ..

وقد بين - سبحانه - أن هذا الدين هو المقبول عنده دون سواه ، فقال : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . » ولقد ظهر هذا الدين فعم المشارق والمغارب ، وسبق - بإذن الله - ظاهرا على الأديان كلها بقوة حجته ، ونصاعة براهينه ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والباء فى قوله : « وكفى بالله شهيدا ، مزيدة لتأكيد هذا الإظهار .

أى : وكفى بشهادة الله - تعالى - شهادة على حقية هذا الدين ، وعلى هذا الإظهار الذى تكفل الله - تعالى - به لدين الإسلام .

• • •

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية، التي فيها ما فيها من الثناء على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى أصحابه، الذين رضى عنهم وأرضاهم فقال:

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ ، قَرَامٌ رُكْعًا سَجْدًا ، يَتَشَتُّونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سَيِّئًا فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيْفِيضَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) » .

وقوله - تعالى - : « محمد رسول الله » ، مبتدأ وخبر ، أو « محمد » ، خبر لمبتدأ محذوف ، و « رسول الله » ، بدل أو عطف بيان من الاسم الشريف .
أى : هذا الرسول الذي أرسله الله - تعالى - بالهدى ودين الحق ، هو محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

« والذين معه » ، وهم أصحابه - وعلى رأسهم من شهد معه صلح الحديبية ، وبايعه تحت الشجرة - من صفاتهم أنهم « أشداء على الكفار » ، أى : غلاظ عليهم ، وأنهم « رحماء بينهم » .

أى : أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادون ويتعاطفون ويتعاونون على البر والتقوى ...

وقوله - تعالى - « محمد رسول الله » ، فيه أسمى التكريم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، حيث شهد له - سبحانه - بهذه الصفة ، وكفى بشهادته - عز وجل - شهادة ، وحيث قدم الحديث عنه بأنه أرسله بالهدى ودين الحق ، ثم أقر اسمه الشريف على سبيل التنويه بفضله ، والنشويق إلى اسمه .

وفي وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، مدح عظيم لهم، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراز، فهم ليسوا أشداء مطلقا، ولا رحماء مطلقا، وإنما شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم لإخوانهم في العاقبة، وشبه بهذه الآية قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ... » (١).

قال صاحب الكشف: وعن الحسن أنه قال: « بلغ من تشدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بقيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم . وبلغ من تراحمهم فيما بينهم ، أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صالحه ... » (٢).

وأسمى من هذا كله في بيان تراحمهم قوله - تعالى - : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ... ».

ثم وصفهم بوصف آخر فقال : « تراحم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا . ».

أي : تراحم ونهاهم - أيها العاقل - راكمين ساجدين محافظين على الصلاة ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرب إلى الله - تعالى - والظفر برضاه وثوابه .

ثم وصفهم بوصف ثالث فقال: « سيحهم في وجوههم من أثر السجود ... » أي : علامتهم وهو نور يجعله الله - تعالى - في وجوههم يوم القيامة، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباههم في الدنيا، من أثر كثرة سجودهم وطاعتهم لله رب العالمين .

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٤٦ .

فالمقصود بهذه الجملة بيان أن الوضوء والإشراق والصفاء .. يملو وجوههم من كثرة الصلاة والعبادة لله ، وليس المقصود أن هناك علامة معينة - كالنسكة التي تكون في الوجه - كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان .

واختار - سبحانه - لفظ السجود ، لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله - تعالى - .

قال الألوسي : أخرج ابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله - تعالى - : « سبّحوا في وجوههم من أثر السجود » ، النور يوم القيامة .

ثم قال الألوسي : ولا يبعد أن يكون النور علامة على وجوههم في الدنيا والآخرة - للآثار السابقة - ، لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأنتم خصه النبي - صلى الله عليه وسلم - بالذكر ... ، (١) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : « ذلك مثلهم في التوراة » ، يعود إلى جميع أوصافهم الجليلة السابقة .

والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن . أي : ذلك الذي ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجرى بحرى الأمثال ، صفتهم في التوراة التي أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - صفتهم في الإنجيل فقال : « ومثلهم في الإنجيل : كزرع أخرج شطاء فأزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع .. »

وقوله : « ومثلهم في الإنجيل » ، معطوف على ما قبله وهو مثلهم في التوراة والإنجيل . هو الكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى - عليه السلام -

والشط : فروع الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع على شاطئيه .
أى : جانبيه .

وجمه : أشطاء ، وشطوه ، يقال : شطا الزرع وأشطا ، إذا أخرج فروع
التي تتولد عن الأصل .

وقوله ، فأزره ، أى : فقوت تلك الفروع أصولها وآزرتها ، وجعلتها
مكيمة ثابتة فى الأرض .

وأصله من شد الإزار . تقول : أزرت فلانا ، إذا شددت إزاره عليه .
وتقول أزر البناء - بالمد والقصر - إذا قويت أساسه وقواعده .

ومنه قوله - تعالى - حكاية عن موسى - عليه السلام - : « واجعل لى وزيرا
من أهلى . هارون أخى . أشدد به أزرى ، ، .

وقوله : « فاستغظ ، أى : فصار الزرع غليظا بعد أن كان رقيقا .

وقوله : « فاستوى على سوقه ، أى : فاستقام وتكامل على سيقانه التي
يعلو عليها .

وقوله : « يعجب الزراع ، أى : يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته .
والمدنى : أن صفة المؤمنين فى الإنجيل ، أنهم كانوا فى أول
أمره رقيقا ضعيفا متفرقا ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلاظ ويتكامل حتى
يقوى ويشدد ، وتعجب جودته أصحاب الزراعة ، العارفين بها ..

فكذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، كانوا فى أول الأمر فى
قلة وضعف ، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة ، حتى بلغوا فى ذلك .

وصدق الله إذ يقول : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ،
تخافون أن يتخطفكم الناس ، فأواكم وأيدكم بنصره ، وورزقكم من الطيبات ،
لعلكم تشكرون ، (١) .

قال صاحب الكشف : وهذا مثل ضربه الله - تعالى - لبده أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قام وحده ، ثم قواه الله - تعالى - ، بمن معه ، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتاج بها إما يتولد منها ؛ حتى يعجب الزراع ، (١) .

وعلى هذا التفسير الذي سرنا عليه يكون وصفهم في التوراة ، هو المعبر عنه بقوله - تعالى - : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، ويكون وصفهم في الإنجيل هو المعبر عنه بقوله - سبحانه - : « كزرع أخرجه شطاه » ،

ولا شك أن هذه الأوصاف كانت موجودة في الكتابين قبل أن يحرقا ويبدلا ، بل بعض هذه الأوصاف موجود في الكتابين ، حتى بعد تحريفهما .

فقد أخرج ابن جرير وعبد بن حميد عن قتادة قال : « مكتوب في الإنجيل سينخرج قوم يثبتون نبات الزرع ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر » ، (٢) .

ويرى بعض المفسرين أن المذكور في التوراة والإنجيل شيء واحد ، وهو الوصف المذكور إلى نهاية قوله : « ومثلهم في الإنجيل » ، وعلى هذا الرأي يكون الوقف تاما على هذه الجملة ، وما بعدها وهو قوله : « كزرع أخرجه شطاه » ، كلام مستأنف .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل » ، قال الفراء : فيه وجهان : إن شئت قلت : المعنى ذلك مثلهم في التوراة وفي الإنجيل أيضا ، كمثلهم في القرآن ، فيكون الوقف على « الإنجيل » .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٢) راجع تفسير سورة الفتح ص ١٦٠ لفضيحة أستاذنا الشيخ

وإن شئت قلت : تمام الكلام : ذلك مثلهم في التوراة ، ثم ابتداء فقال :
ومثلهم في الإنجيل .

وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما في التوراة ، والآخر
في الإنجيل ... (١) .

والذي نراه أن ما ذهب إليه ابن عباس من كونهما مثلين ، أحدهما مذكور
في التوراة والآخر في الإنجيل ، هو الرأي الراجح ، لأن ظاهر الآية
يشهد له .

وفي هذه الصفات ما فيها من رسم صورة مشرقة مضبنة لهؤلاء المؤمنين
الصادقين .

وقوله - تعالى - « ليفيظ بهم الكفار ، تعليل لما يعرب عنه الكلام ، من
لإيجاده - تعالى - لهم على هذه الصفات الكريمة .

أى : جعلهم - سبحانه - كذلك بأن وفقهم لأن يكونوا أشداء على الكفار
ولأن يكونوا رحماء فيما بينهم . ولأن يكونوا مواظبين على أداء الطاعات ...
لكي يفىظ بهم الكفار ، فيعيشوا وفي قلوبهم حسرة مما يرونه من صفات
سامية للمؤمنين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الوعد الجميل ، فقال : « وعد الله
الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

و « من » في قوله « منهم » الراجح أنها للبيان والتفسير ، كما في قوله - تعالى -
« فاجتنبوا الرجس من الأوثان ... » .

أى : وعد الله - تعالى - بفضل وإحسانه ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وهم أهل بيعة الرضوان ، ومن كان على شاكلتهم فى قوة الإيمان ... وعدم جميعا مغفرة لذنوبهم ، وأجر أعظيما لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - .

ويحوز أن تكون من هنا للتبويض ، لى يخرج من هؤلاء الموعودين بالمغفرة والأجر العظيم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر ، وهم المنافقون الذين أبوا مبايعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبوا الخروج معه للجهاد . والذين من صفاتهم أنهم كانوا إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شيا بينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها : وجوب احترام الصحابة وتوقيرهم ، والثناء عليهم ، لأن الله - تعالى - قد مدحهم ووعدهم بالمغفرة وبالأجر العظيم

قال القرطبي : روى أبو عدوة الزبيرى من ولد الزبير أنه قال : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقرأ مالك هذه الآية : محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد أصابته هذه الآية .

ثم قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : قلت : لقد أحسن مالك فى مقاله وأصاب فى تأويله ، فنقص واحدا منهم أو طعن عليه فى روايته ، فقد رد على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين (١) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الفتح » تلك السورة التى بشرت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بألوان من البشارات العالية ، وأدبتهم بأنواع

من الآداب السامية ، وعرفتهم بأعدائهم من المنافقين والكافرين ، وحكت
الكثير من مظاهر فضل الله - تعالى - ورجته بعباده المؤمنين . .
نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجي عفو ربه

القاهرة - مدينة نصر

د . محمد سيد طنطاوى

مساء السبت ١٦/٤/١٤٠٦ هـ

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

١٩٨٥/١٢/٢٨ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الحجرات ، من السور المدنية الخالصة ، وعدد آياتها ثمانى عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة المجادلة .

٢ - والذي يتدبر هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسنى الآداب ، وأبلغ العظات ، وأحكم الهدايات ، فهي تبدأ ببدء المؤمنين ، تعلمهم فيه ما يجب عليهم نحو خالقهم - سبحانه - ، ونحو نبيهم - صلى الله عليه وسلم - من أدب ...

قال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون

٣ - ثم وجهت إليهم نداء ثالثاً أمرتهم من خلاله بالتثبت من صحة الأخبار التي تصل إلي مسامعهم ، وبينت لهم جانباً من مظاهر فضل الله عليهم . قال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطلعكم في كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم . .

٤ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما يجب على المؤمنين نحو إخوانهم في العقيدة ، إذا مادي بينهم نزاع أو قتال ، فأمرت بالإصلاح بينهم ، ومقابلة الفتن الباغية إذا ما أبت الصلح ، وأصرت على بغيها ..

قال - سبحانه - : « وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تقي إلى أمر الله ، فإن قاتت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »

• - ثم وجهت بعد ذلك إلى المؤمنين نداء رابعاً نهتهم فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ، أو أن يلزم بعضهم بعضاً ..

ونداء خامساً أمرتهم فيه باجتناب الظن السيئ بالغير ، دون أن يكون هناك مبرر لذلك ، ونهتهم عن التجسس وعن الغيبة ..

قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن . إن بعض الظن إثم . ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم . »

٦ - وبعد هذه النداءات المتكررة للمؤمنين ، وجهت نداء إلى الناس جميعاً ، بينت لهم فيه أنهم جميعاً قد خلقوا من ذكر وأنثى ، وأن أكرمهم عند الله هو أتقاهم وأخشاهم لله - تعالى - ...

ثم ردت على الأعراب الذين قالوا آمنا دون أن يستقر الإيمان في قلوبهم ووضعت صفات المؤمنين الصادقين ، وأمرت كل مؤمن أن يشكر الله تعالى - على نعمة الإيمان .

قال - سبحانه - : « بمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون . »

٧ - وهكذا نجد السورة الكريمة قد رسمت للدؤمنين طريق الحياة السعيدة ، حيث عرفتهم بما يجب عليهم نحو خالقهم - سبحانه - ، وبما يجب عليهم نحو نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وبما يجب عليهم نحو أنفسهم ، وبما يجب عليهم نحو إخوانهم في العقيدة . وبما يجب عليهم نحو أفراد المجتمع الإسلامى بصفة عامة ...

وقد وضحت لهم كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، من شأنه أن يغرس في النفوس الخشوع والطاعة لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه الراجى عفو ربه

القاهرة - مدينة نصر محمد سيد طنطاوى

١٤٠٦/٦/١٩ هـ

١٩٨٥/١٢/٣١ م

التفسير

قال الله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ
 اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
 بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ
 يُنْذِرُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
 فَلَتَقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ
 الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ
 لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) » .

افتتحت سورة الحجرات ، بهذا النداء المحبب إلى القلوب ، ألا وهو
 الوصف بالإيمان ، الذي من شأن المتصفين به ، أن يمتثلوا لما يأمرهم الله - تعالى -
 به ، ويحذروا ما ينهاهم عنه .

افتتحت بقوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ ... » .

وقوله « تَقْدُمُوا » مضارع قَدِمَ اللّازم بمعنى تقدم ، ومنه مقدمة الجيش
 ومقدمة الكتاب - بكسر الدال فيهما وهو اسم فاعل فيهما بمعنى تقدم .

ويصح أن يكون مضارع قَدِمَ المتعدي ، تقول : قدمت فلانا على فلان ،
 إذا جملته متقدما عليه ، وحذف المفعول لقصد التعميم .

وقوله : « بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » تضييه لمن يتمجل في إصدار حكم من
 أحكام الدين بغير استناد إلى حكم الله ورسوله ، بحالة من يتقدم بين

يدى سيده أو رئيسه ، بأن يسير أمامه في الطريق ، أو على يمينه أو شماله ...
وحقيقة الجلوس بين يدى الشخص : أن يجلس بين الجهتين المقابلتين ليمينه
أو شماله قريباً منه أو أمامه ..

قال الجمل : قوله : « بين يدى الله ورسوله » جرت هذه العبارة هنا على سنن
من المجاز ، وهو الذى يسميه أهل البيان تمثيلاً ، أى : استعارة تمثيلية ، شبه
تعمل الصحابة فى إقدامهم على قطع الحكم فى أمر من أمور الدين ، بغير إذن
الله ورسوله ، بحالة من تقدم بين يدى متبوعة ، إذا سار فى طريق ، فإنه فى
العادة مستهجن ... والفرض تصوير كمال الهجنة ، ونقيض قطع الحكم بغير إذن
الله ورسوله ..

أو المراد : بين يدى رسول الله ، وذكر لفظ الجلالة على سبيل التعميم
للسؤل - صلى الله عليه وسلم - وإشعار : بأنه من الله بمكان يوجب
إجلاله .. (١)

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان : احذروا أن تتسرعوا
فى الأحكام ، فتقولوا قولاً ، أو تفعلوا فعلاً يتعاق بأمر دينى ، دون أن تسندوا
فى ذلك إلى حكم الله - تعالى - وحكم رسوله - صلى الله عليه وسلم -
« واتقوا الله ، - تعالى - فى كل ما تأتون وتذرون ، « إن الله سميع ،
لأقوالكم ، عليم ، بجميع أحوالكم ..

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه آداب أدب الله - تعالى -
بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من التوقير
والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال : « بأياها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى
الله ورسوله ... »

أى : لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه ، أى : قبله ، بل كونوا قباله فى

جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعى ، حديث معاذ ، إذ قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ، ؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسول الله . قال فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى .. »

فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظره واجتهاده ، إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله ... (١) وقال الإمام القرطبى ما ملخصه : قوله : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » أى : لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدى الله . وقول رسول الله وفعله ، فيما سبيله أن تأخذه عنه من أمر الدين والدنيا .. واختلف في سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال منها :

١ - ذكره الواحدى من حديث ابن جريج قل : حدثنى ابن أبى مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله - فقال : أبو بكر - يا رسول الله - : أمرٌ عليهم القعقاع بن معبد . وقال عمر - يا رسول الله - : أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر ما أردت خلافاً ، فتناديا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت هذه الآية ..

وقال قتادة : إن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل فى كذا ، فنزلت هذه الآية ..

وقال الحسن : نزلت في قوم ذبحوا أضحياتهم قبل أن يعلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأمرهم أن يعيدوا الذبح .. (٢)

وعلى أية حال فالعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمقصود من

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٤٥ .

(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢٠٠ .

الآية السكرية نهى المؤمنين في كل زمان ومكان عن أن يقولوا قولاً أو يفعلوا فعلاً يتعلق بأمر شرعى ، دون أن يعودوا فيه إلى حكم الله ورسوله .

ثم وجه - سبحانه - داء ثانياً إلى المؤمنين ، أكد فيه وجوب إحترامهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . . »

قال الألوسى : هذه الآية شروع في النهى عن التجاوز في كيفية القول عند النبى - صلى الله عليه وسلم - بعدم النهى عن التجاوز في نفس القول والفعل . وإعادة النداء مع قرب العهد به ، للمبالغة في الإيقاظ والتنبه ، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه . . . (١) .

أى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر . . . واطلبوا على توفيركم واحترامكم لرسولكم - صلى الله عليه وسلم - ، ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته عند مخاطبتكم له ، ولا تجعلوا أصواتكم مساوية لصوته - صلى الله عليه وسلم - حين الكلام معه ، ولا تنادوه باسمه مجرداً بأن تقولوا له يا محمد ، ولكن قولوا له : يا رسول الله . أو يا نبى الله .

والكاف في قوله : « كجهر بعضكم لبعض » ، في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف : أى : ولا تجهروا له بالقول جهراً مثل جهر بعضكم ببعض . قال القرطبى : وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفته ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة ، وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها ، (٢) .

(١) تفسير الألوسى > ٢٦ ص ١٣٤ .

(٢) تفسير القرطبى > ١٦ ص ٣٠٦ .

وقوله - سبحانه - : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ، بيان لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته - صلى الله عليه وسلم - من خسران .

والجمله تعليل لما قبلها ، وهي في محل على أنها مفعول لأجله . أى : إنماكم الله - تعالى - عن رفع أصواتكم فوق صوت النبى - وعن أن تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، كراهة أو خشية أن يبطل ثواب أعمالكم بسبب ذلك ، وأنتم لا تشعرون بهذا البطلان .

قال ابن كثير : وقوله : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ، أى : إنما فميناكم عن رفع الصوت عنده - صلى الله عليه وسلم - خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري ...

وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم خيا وفي قبره ، (١) .

ولقد امثال الصحابة لهذه الإرشادات إمتعالا تاما ، فهذا أبو بكر يروى عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، والله لا أكلك إلا كأخى السرار - كالذى يتكلم همسا - .

وهذا ثابت بن قيس ، كان رفيع الصوت ، فلما نزلت هذه الآية قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس فى أهل بيته حزينا ... فلما بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - ما قاله ثابت ، قال لأصحابه : دلا . بل هو من أهل الجنة ، (٢) .

قال بعض العلماء : وما تضمنته هذه الآية من لزوم توقير النبى - صلى الله عليه وسلم - جاء مبينا فى آيات أخرى ، منها قوله تعالى - : « لا تجعلوا دماء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٤٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٤٧ والقرطبي ج ١٦ ص ٢٠٤

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله - تعالى - لم يخاطبه في كتابه بإسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله - سبحانه - : « يا أيها النبي . يا أيها الرسول . يا أيها المدثر ... »

مع أنه - سبحانه - قد نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم ، كقوله - تعالى - : « وقلنا يا آدم ... » .

وقوله - عز وجل - : « ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ... » أما النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب ، وإنما ذكر في غير ذلك ، كقوله - تعالى - : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ... » (١)

ثم مدح - سبحانه - الذين يفضون أصواتهم في حضرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ... »

وقوله : « يفضون » بمعنى يخفضون . يقال : غض فلان من صوته ومن طرفه إذا خفضه . وكل شيء كففته عن غيره فقد غنضته .

وقوله : « امتحن » أي : اختبر وأخلص ، وأصله من امتحان الذهب وإذا به ليخلص جيده من خبيثه . والمراد به هنا : إخلاص القلوب لمراقبة الله وتقواه . أي : إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعند مخاطبتهم له . أولئك الذين يفعلون ذلك ، هم الذين أخلص الله - تعالى - قلوبهم لتقواه وطاعته ، وجعلها خالصة من أي شيء سوى هذه الخشية والطاعة .

قال صاحب الكشف : « امتحن الله قلوبهم للتقوى » من قولك : امتحن فلان لأمركذا وجرب له ، ودرب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير وان منه والمعنى : أنهم صبروا على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها .

(١) تفسير أضواء البيان ٧ ص ١٦٦ للشيخ الشنقيطي

أو وضع الإمتحان موضع المعرفة، لأن تحقق الشئ باختباره ، كما يوضع
الخبر موضعها ، فكانه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى ... ، (١)

وقوله : د لهم مغفرة وأجر عظيم ، بشارة عظيمة من الله - تعالى -
لهم . أى : هؤلاء الغاضين أصواتهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير لا يعرف مقداره أحد سوى الله - تعالى -
وانقد التزم المسلمون بهذا الأدب في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -
وبعد مائة ، بقدر سمع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رجلا يرفع صوته
في المسجد النبوى ، فقال له : من أين أنت - أيها الرجل - ؟ فقال من الطائف
فقال له لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا .

ثم أشار - سبحانه - إلى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم عند ندائهم
للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : د إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ،
أكثرهم لا يملكون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله
غفور رحيم .

وقد ذكروا في سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة من بنى نعيم أتوا إلى
المدينة في عام الوفود في السنة التاسعة ، فوقفوا بالقرب من منزل النبي - صلى
الله عليه وسلم - في ساعة القيلولة وأخذوا يقولون : يا محمد أخرج إلينا . . .
فكره النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم ذلك .

والمراد بالحجرات : حجرات نساءه - صلى الله عليه وسلم - ، جمع حجرة
وهي القطعة من الأرض المحجورة ، أى : المحددة بمحدود لا يجوز تخطيها ، ويمنع
الدخول فيها إلا بإذن .

أى : إن الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - د من وراء الحجرات ،

أى : خلف حجرات أزواجك وخارجها ، أكثرهم لا يجرون على ما تقتضيه العقول السليمة ، والآداب القويمة . من مراعاة الاحترام والتوقير لمن يخاطبونه من الناس ، فضلا عن أفضلهم . وأشرفهم ، وذلك لأنهم من الأعراب الذين لم يحسنوا مخاطبة الناس ، لجفائهم وغلظ طباعهم .

وقال - سبحانه - : أكثرهم ، للإشعار بأن قلة منهم لم تشارك هذه الكثرة في هذا النداء الخارج عن حدود الأدب واللياقة .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : وورود الآية على النقط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من إكبار النبي - صلى الله عليه وسلم - وإجلال لمقامه .

ومن ذلك يجيئها على النظم المسجل على الصائحين به السفه والجهل بسبب ما أقدموا عليه .

ومن ذلك التعبير بلفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض فساته ، والمرور على لفظها بالإفتصار على القدر الذي يظهر به موضع الاستنكار عليهم .

ومن ذلك : شفع ذمهم باستجفائهم وإستر كالك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهويها للخطب ، وتسليته له - صلى الله عليه وسلم - وبسببهم . . . (١)

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى السلوك الأفضل فقال - تعالى - : « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ... »

أى : ولو أن هؤلاء الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - من وراء الحجرات ، صبروا عليك حتى تخرج إليهم . ولم يتمجلوا بنداؤك بتلك الصورة

الحناية من الأدب ، لكان صبرهم خير لهم ، والله ، - تعالى - غفور رحيم ،
أى : واسع المغفرة والرحمة .

قال صاحب الكشف : يحكى عن أبى عبيد - العالم الزاهد الثقة - أنه قال :
ما دقت باب عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خروجه ،

وقوله : : أنهم صبروا ، فى موضع رفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو
ثبت صبرهم ...

فان قلت : هل من فرق بين قوله : حتى يخرج ، وإلى أن يخرج ؟

قلت : إن « حتى » مختصة بالغاية المضروبة . تقول : أكلت السمكة حتى
رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها ، لم يحز ، و « إلى » عامة فى كل
غاية ، فقد أفادت « حتى » بوضعها : أن خروج رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - اليهم غاية قيد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون
الإنهاء اليه .

فإن قلت : فأى فائدة فى قوله « إليهم » ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن
خروجه إليهم ولا جملهم ، لزمهم أن يصبروا إلى أن يعذبوا أن خروجه
إليهم ... (١)

هذا والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قيد رسمت للمؤمنين أسمى
ألوان الأدب فى مخاطبتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وفى إلزامهم
بالأبى يقولوا قولاً أو يفعلوا فعلاً ، يتعلق بشأن من شئون دينهم إلا بعد
معرفةهم بأن هذا القول أو الفعل يستند إلى حكم شرعى ، شرعه الله - تعالى -
ورسوله - صلى الله عليه وسلم - .

كما أنه يراها قد مدحت الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ، وذمت الذين لا يلتزمون هذا الأدب عند مخاطبته أو ندائه .

ثم وجهت السورة فداء ثالثا إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالتثبت من صحة الأخبار التي تصل إليهم . وأرشدتهم إلى مظاهر فضل الله - تعالى - عليهم لكي يواظبوا على شكره ، فقال - تعالى - .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ، أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثَالِهِ ، فَتَصْجِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ، وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ ، وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد بعث الوليد بن عتبة إلى بني المصطلق لياخذ منهم الصدقات ، وإنهم لما أتاهم الخبر ، فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم

فرجع الوليد - ظنا منه أنهم يريدون قتله - فقال يا رسول الله : إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة . فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك غضبا شديدا ، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا : يا رسول الله ، إنا بلغنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإنا خشينا أن ماردته كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضبه ورسوله فأنزل الله - تعالى - الآية (١) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٥٠

والفاسق : هو الخارج عن الحدود الشرعية التي يجب التزامها ، مأخوذ من فو لهم . فسقت الرطبة ، إذا خرجت عن قشرتها ، وسمى بذلك لانسلاخه عن الخيز والرشد .

وقرأ الجمهور : « فتبينوا » ، وقرأ حمزة والكسائي ، فتثبتوا ، ومعناها واحد ، إذ هما بمعنى التأنى وعدم التعجل في الأمور حتى تظهر الحقيقة فيما أخبر به الفاسق .

أى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، إن جاءكم فاسق بخبر من الأخبار ، ولا سيما الأخبار الهامة ، فلا تقبلوه بدون تبين أو تثبت ، بل تأكدوا وتيقنوا من صحته قبل قبوله منه ...

والتعبير : « إن » ، المفيدة للشك ، للإشعار بأن الغالب في المؤمن أن يكون يقظا ، يعرف مداخل الأمور ، وما يترتب عليها من نتائج ، ويحكم عقله فيما يسمع من أنباء ، فلا يصدق خبر الفاسق إلا بعد التثبت من صحته .

قال صاحب الكشف : وفي تنكير الفاسق والنبا : شيا ع في الفاسق والأنباء ، كأنه قال : أى فاسق جاءكم بأى نبأ فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر ، وانكشف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه ... (١) .

وقال القرطبي : وفي الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا ، لأنه إنما أُر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا ، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها ... (٢) .

وقوله : « أن تصيبوا قوما بجهالة » ، تعليل للأمر بالتبين ، بتقدير لام

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٦٠

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣١٢

التعليل ، أو بتقدير ما هو بمعنى المفعول لأجله . والجهالة بمعنى الجهل بحقيقة الشيء .

أى تثبتوا - أيها المؤمنون - من صحة خبر الفاسق ، لئلا تصيبوا قوما بما يؤذيهم ، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم ، أو خشية أن تصيبوا قوما بجهالة ، لظنكم أن النبأ الذي جاء به الفاسق حقا .

وقوله : فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، بيان للنتائج السيئة التي تترتب على تصديق خبر الفاسق . ود تصبحوا ، بمعنى تصيروا . والندم : غم يلحق الإنسان لأمر وقع منه ، ثم صار يتعنى بعد فوات الأوان عدم وقوعها .

أى : فتصيروا على ما فعلتم مع هؤلاء القوم نادمين ندما شديدا ، بسبب تصديقكم لخبر الفاسق بدون تبين أو تثبت .

فالأية الكريمة ترشد المؤمنين في زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار فالأية الكريمة ترشد المؤمنين في كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالا سليما ، وإلى كيفية التصرف معها تصرفا حكما ، فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها ، حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفاسق في خبره ، بدون تأكيد أو تحقق من صحة ما قاله ..

وبهذا التحقق من صحة الأخبار ، يعيش المجتمع الإسلامي في أمان واطمئنان ، وفي بعد عن الندم والتحسر على ما صدر منه من أحكام .

ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى جواب من نعمه عليهم ، ورحمته بهم فقال : واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو بطيعكم في كثير من الأمر لعنتم .

والعنت : الوقوع في الأمر الشاق المؤلم . يقال : عنت فلان - يزهو فزع - إذا وقع في أمر يؤدي إلى هلاكه أو نفيه أو إبدائه ...

ويفهم من الآية الكريمة أن بعض المسلمين صدقوا الوليد بن عتبة ،

وأشاروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعجل بعقاب بنى المصطلق .
والمراد بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم : أخذه برأيهم ،
وتنفيذه لما يريدونه منه .

والمراد بالكثير من الأمر : الكثير من الأخبار والأحكام التي يريدون
تنفيذها حتى ولو كانت على غير ما تقتضيه المصلحة والحكمة .

أى : واعلموا - أيها المؤمنون - أن فيكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
الذي أرسله - سبحانه - لكي يهديكم إلى الحق وإلى الطريق القويم ... وهو
- عليه الصلاة والسلام - لو يطيعكم في كثير من الأخبار التي يسمعها منكم ،
وفي الأحكام التي تحبون تطبيقها عليكم أو على غيركم ... لو يطيعكم في كل
ذلك لأصابكم العنت والمشقة ، ولنزل بكم ما قد يؤدي إلى هلاككم
وإتلاف أموركم .

قال الألوسي ما ملخصه : وقوله : « واعلموا أن فيكم رسول الله ... »
عطف على ما قبله ، ودان ، بما في حيزها ساد مسد مفعولى « اعلموا » باعتبار
ما قيد به من الحال ، وهو قوله : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ... »
وتقديم خبر « أن » للحصر المستتبع زيادة التوبيخ . وصيغة المضارع
للاستمرار .

« فلو » لامتناع استمرار طاعته - عليه الصلاة والسلام - لهم في كثير
مما يمن لهم من الأمور ..
وفي الكلام إشعار بأنهم زينوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - الإيقاع
بنى المصطلق ...

وفي هذا التعبير مبالغات منها : إظهار « لو » ليدل على الفرض والتقدير .
ومنها : مافى العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه ، وتهجينه ..
ومنها : مافى التعبير بالعنت من الدلالة على أشد المحذور ، فإنه الكسر بعد
الجر ، والرمز الخفى على أنه ليس بأول بادرة منهم ... (١) .

وقوله - سبحانه - : «ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » استدراك على ما يقتضيه الكلام السابق ، وبيان لمظاهر فضله عليهم ، ورحمته - سبحانه - بهم .

أى : ولكنه - صلى الله عليه وسلم - لا يطيعكم في كل ما يمن إليكم ، وإنما يقين الأمور والأخبار ويتثبت من صحتها ثم يحكم ، وقد حجب الله - تعالى - إلى كثير منكم الإيمان المصحوب بالعمل الصالح والقول الطيب وزينه وحسنه في قلوبكم ، وكره وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان لكل ما أمر به أو نهى عنه :

ورحم الله صاحب الكشف فقد أجاد عند تفسير هذه الآية ، فقال ما ملخصه : قوله : «لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم . . . » أى : لو قمتم في العنت والهلاك . . . وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإيقاع ببني المصطلق . . . وأن بعضهم كانوا يتصوفون ويزعمون جدم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استنابهم - سبحانه - بقوله : «ولكن الله حبيب إليكم الإيمان» ، أى إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض : صفتهم المفارقة لصفة غيرهم . وهذا من لمجازات القرآن ، ولحاته اللطيفة ، التي لا يفطن لها إلا الخواص .

فإن قلت : كيف موقع ، ولكن ، وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا ؟

قلت : هي مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حجب إليهم الإيمان قد غابت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم ، فوقعت لكن في موقعها من الاستدراك . . . (١)

وإسم الإشارة في قوله : « أولئك هم الراشدون » ، يعود إلى المؤمنين الصادقين ، الذين حجب الله تعالى - إلههم الإيمان وزينه في قلوبهم -

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الثابتون على دينهم ، المهتدون إلى طريق الرشd والصواب ، إذ الرشd هو الاستقامة على طريق الحق ، مع الثبات عليه ، والتصلب فيه ، والنفسك به في كل الأحوال .

وقوله - سبحانه - : « فضلا من الله ونعمة . . . » ، تعليل لما من به - سبحانه - عليهم من تزيين الإيمان في قلوبهم .

أى : فعل ما فعل من تحبيب الإيمان إليكم ، ومن تبخيس الكفر إلى قلوبكم ، لأجل فضله عليكم ، ورحمته بكم ، وإنعامه عليكم بالنعم التي لا تحصى . . .

« والله ، - تعالى - ، عليم ، بكل شئ » ، حكيم ، في كل أفعاله وأقواله وتصرفاته .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد رسمت للمؤمنين أحكام الطرق في تلقى الأخبار ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضله عليهم ، لكي يستمروا على شكرهم له وطاعتهم لرسوله .

• • •

ثم انتقلت السورة إلى دائرة أوسع وأرحب فدعت المؤمنين إلى التدخل بين الطوائف المتنازعة لعقد المصالحة بينها ، وإلى قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله - تعالى - فقال - سبحانه - :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ . فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) »

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) .

وقد ذكروا في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما رواه الامام أحمد عن أنس قال : قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : لو أتيت عبد الله بن أبي ؟ فأنطلق اليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وركب حمارا ، ولأنطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ، فلما أنطلق اليه - عليه الصلاة والسلام - قال : إلیکم عنی ، فوالله لقد آذاني ريح حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك .

قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، وغضب للأنصاري أصحابه . قال : فكان بينهم ضرب بالجرید والأیدی ... فبلغنا أنه أنزلت فيهم ، وإن « اتفقتان المؤمنین ... ألخ الآية ، (١) »

والخطاب في الآية لأولى الأمر من المسلمين ، والأمر في قوله : « فأصلحوا . » للوجوب ، والطائفة : الجماعة من الناس ..

أى : وإن حدث قتال بين طائفتين من المؤمنين ، فعليكم يا أولى الأمر من المؤمنين أن تدخلوا بينهما بالاصلاح ، عن طريق بذل النصح ، وإزالة أسباب الخلاف .

والتعبير « إن ، الإشـمار بأنه لا يصح أن يقع قتال بين المؤمنين ، فإن وقع على سبيل القدرة ، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته .

وجاء « إقتتلوا ، بلفظه الجمع ، لأن لفظ الطائفة وإن كان مفردا في اللفظ إلا أنه جمع في المعنى ، وروى فيه المعنى هنا . وروى فيه اللفظ في قوله : « بينهم ، قالوا . » والنكتة في ذلك أنهم في حال القتال يكونون مختلطين فلذا جاء الأسلوب بصيغة الجمع ، وفي حال الصلح يكونون متميزين متفرقين فلذا جاء الأسلوب بصيغة التثنية .

ثم بين - سبحانه - حكمه في حال اعتداه احدهما على الأخرى فقال :
 « فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبيعى حتى تطفى الى أمراة ،
 والبعى : التعدى وتجاوز الحد والامتناع عن قبول الصلح المؤدى الى
 الصواب .

أى : فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ، وتجاوزت حدود العدل
 والحق . فقاتلوا - أيها المؤمنون - الفئة الباغية ، حتى تطفى وترجع إلى حكم
 الله - تعالى - وأمره ، وحتى تقبل الصلح الذى أمرناكم بأن تقيموه بينهم .
 وقوله : « فإن قامت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، بيان لما يجب على
 المؤمنين أن يفعلوه مع الفئة الباغية ، إذا ما قبلت الصلح ورجعت إلى حكم
 الله - تعالى - .

أى : فإن رجعت الفئة الباغية عن بغيتها ، وقبلت الصلح ، وأقبلت عن
 القتال ، فأصلحوا بين الطائفتين لإصلاحاً متسماً بالعدل التام ، وبالقسط الكامل .
 وقيد - سبحانه - الإصلاح بالعدل . ثم أكد ذلك بالأمر بالقسط ، حتى
 يلتزم الذين يقومون بالصلح بينهما العدالة التى لا يشوبها أى حيف أو جور
 على إحدى الطائفتين ...

وقوله : « إن الله يحب المقسطين ، تدليل المقصود به حض المؤمنين على
 التقيد بالعدل فى أحكامهم ، لأن الله - تعالى - يحب من يفعل ذلك .

وقوله : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم استئناف
 مقرر لمضمون ما قبله من الأمر بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين ...

أى : إنما المؤمنون إخوة فى الدين والعقيدة ، فهم يجمعهم أصل واحد
 وهو الإيمان ، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب ، وكما أن أخوة النسب
 داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر فى جلب الخير . ودفع الشر ، فكذلك
 الأخوة فى الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح ، وإلى تقوى الله وخشيته ،
 ومضى تصالحكم واتقيتم الله - تعالى - كنتم أهلاً لرحمته ومشوبته .

قال صاحب الكشف فإن قلت : فلم خص الإثنان بالذكر دون الجمع - في قوله : فأصلحوا بين أخويكم ؟

قلت لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر أكرم ، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين ، (١) .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين حجة من الأحكام منها : أن الأصل في العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم ، لا على التنازع والتخاصم ، وأنه إذا حدث نزاع بين طائفتين من المؤمنين ، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الإصلاح بينهما حتى يرجعا إلى حكم الله - تعالى - .

قال الشوكاني : « إذا تقابل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يهتدوا بالصالح بينهم ، ويدعواهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغياها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها نحو الأخرى ، (٢) .

ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين نداء رابعا ، نهام فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ، أو أن يعيب بعضهم بعضا فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَمَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٦٢ للشوكاني .

أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ،
وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) .

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنها نزلت في قوم من
بنى تميم ، سخرُوا من بلال ، وسلمان ، وعمار ، وخباب لما رأوا من
رثائه حالهم ، وقلة ذات يدهم .

ومن المعروف بين العلماء ، أن العبارة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .
وقوله : « يسخر » من السخرية ، وهي احتقار الشخص لغيره بالقول أو
بالفعل . يقال : سخر فلان من فلان ، إذا استهزأ به ، وجعله مثار الضحك ،
ومنه قوله - تعالى - حكاية عن نوح مع قومه - : « قال إن تسخروا منا فإنا
نسخر منكم كما تسخرون » .

قال صاحب الكشف : والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القوام بأمور
النساء ... واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية ، وفي قول الشاعر : أقوم
آل حصن أم نساء ...

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ
القوم بمتعاط للفرعيين ، ولكن قصد ذكر الذكور ، وترك ذكر الإناث
لأنهن توابع لرجالهن ، (١) .

أى : يا من آمن آمنتم بالله حق الإيمان ، لا يحتقر بعضكم بعضا ولا يستهزئ
بعضكم من بعض .

وقوله : « عسى أن يكونوا خيرا منهم » ، تعليل للنهى عن السخرية . أى :
عسى أن يكون المسخور منه خيرا عند الله - تعالى - من الساخر ، إذ أقدار

(١) سورة هود . الآية ٢٨

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٦٧

الناس عنده - تعالى - أيسر على حسب المظاهر والأحساب.... وإنما هي على حسب قوة الإيمان ، وحسن العمل .

وقوله : « ولا نساء من نساء عبي أن يكن خيرا ممن ، معطوف على النهى السابق ، وفي ذكر النساء بعد القوم قرينة على أن المراد بالقوم الرجال خاصة .
أي : عليكم يا معشر الرجال أن تمتدوا عن احتقار غيركم من الرجال ، وعليكم يا جماعة النساء أن تقلعن أقلاما تاما عن السخرية من غيركن .

ونكر - سبحانه - لفظ « قوم » ، و « نساء » ، للإشعار بأن هذا النهى موجه إلى جميع الرجال والنساء ، لأن هذه السخرية منتهى عنها بالنسبة للجميع .
وقد جاء النهى عن السخرية موجه إلى جماعة الرجال والنساء ، جريا على ما كان جاريا في الغالب ، من أن السخرية كانت تقع في المجمع والمحافل ، وكان الكثيرون يشتركون فيها على سبيل التلهي والتلذذ .

ثم قال - تعالى - : « ولا تلبسوا أنفسكم ، أي : ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة سواء أكان على وجه يضحك أم لا ، وسواء أكان بحضرة الملبوس أم لا ، فهو أعم من السخرية التي هي احتقار الغير بحضرة ، فالجمل السخرية من باب عطف العام على الخاص .

يقال : لمز فلان فلانا إذا عابه وانتقصه ، وفعله من باب ضرب ونصر .
ومنهم من يرى أن اللز ما كان سخرية ولكن على وجه الخفية ، وعليه يسكون العطف من باب عطف الخاص على العام ، مبالغة في النهى عنه حتى لكانه جنس آخر .

أي : ولا يعب بعضكم بعضا بأي وجه من وجوه العيب ، سواء أكان ذلك في حضور الشخص أم في غير حضوره .

وقال - سبحانه - « ولا تلبسوا أنفسكم ، مع أن اللازم يلزم غيره الإشارة إلى أن من عاب أخاه المسلم ، فكأنما عاب نفسه ، كما قال - تعالى - : « فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ، تحية من عند الله مباركة طيبة » .

وقوله ولا تناجزوا بالألقاب ، أى : ولا يخاطب أحدكم غيره بالألقاب التى يكرهها ، بأن يقول له يا أحمق ، أو يا أعرج ، أو يا منافق ... أو ما يشبه ذلك من الألقاب السيئة التى يكرهها الشخص .

فالتناجز : التعاير والتداعى بالألقاب المكروهة ، يقال : نبزه بنبزه - كضربه بضربه - إذا ناداه بلقب يكرهه ، سواء أكان هذا اللقب للشخص أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما .

وقوله - تعالى - : « ينس الاسم الفسوق بعد الإيمان » ، تعليل للنهى عن هذه الرذائل والمراد بالاسم : ما سبق ذكره من السخرية واللبز والتناجز بالألقاب ، والمخصوص بالذم محذوف .

أى : ينس الفعل فعلكم أن تذكروا لإخوانكم فى العقيدة بما يكرهونه وبما يخرجهم عن صفات المؤمنين الصادقين ، بعد أن هـدام الله - تعالى - وهداكم إلى الإيمان .

وعلى هذا فالمراد من الآية نهى المؤمنين أن ينسبوا لإخوانهم فى الدين إلى الفسوق بعد اتصافهم بالإيمان .

قال صاحب الكشف : الاسم ههنا بمعنى الذكر ، من قولهم : فلان طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته ... كأنه قيل ينس الذكر المرتفع للمؤمنين ... أن يذكروا بالفسق ... ، (١) .

ويصح أن يكون المراد من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن ارتكابهم لهذه الرذائل لأن ارتكابهم لهذه الرذائل ، يؤدى بهم إلى الفسوق والخروج عن طاعة الله - تعالى - ، بعد أن اتصفوا بصفة الإيمان .

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال ماملخصه : وقوله « ينس الاسم الفسوق بعد الإيمان » .

يقول - تعالى - : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ونزبه بالآلقاب ، فهو فاسق ، بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان . يقول : فلا تفعلوا فستحقوا إن فعلتموه ، أن تسموا فساقا - بعد أن وصفتم بصفة الإيمان - ... ، (١) .

وقال الإمام الفخر الرازى ماملخصه : هذا أى قوله - تعالى - : بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان - من تمام الزجر ، كأنه - تعالى - يقول : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلعنوا أنفسكم ؛ ولا تتنازروا . فإن من يفعل ذلك يفسق بعد إيمانه ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق ... وبصير التقدير : بشئ الفسوق بعد الإيمان ... ، (٢) .

ويبدو لنا أن هذا الرأى أنسب للسياق ، إذ المقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن السخرية أو الملامز أو التنازع بالآلقاب ، لأن تعودهم على ذلك يؤدى بهم إلى الفسوق عن طاعة الله - تعالى - ، والخروج عن آدابه ، وبشئ الوصف وصفهم بذلك أى : بالفسق بعد الإيمان .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » أى : ومن لم يتب عن ارتكاب هذه الرذائل ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة ، والفسوق موضع الإيمان ..

هذا . ومن الإحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب الابتعاد عن أن يعيب المسلم أخاه المعلم ، أو يحتقره ، أو يناديه بلقب سيئ .

قال الآلوسى : اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره ، سواء أكان صفة له أم لا يه أم لا ، أم لا يه أم لا يه ...

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٦ ص ٨٥
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٥٧٧

ويستثنى من ذلك نداء الرجل بقلب قبيح في نفسه ، لا على قصد الاستخفاف به ، كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته ، كقول المحدثين : سليمان الأعمش ، وواصل الأحمد ... (١) .

• • •

ثم وجه - سبحانه - إلى عباده المؤمنين نداء خامسا ، نهام فيه عن أن يظن بعضهم ببعض ظلنا سيئا بدون مبرر ، كما نهام عن التجسس وعن الغيبة ، حتى تبقى للمسلم حرمة وكرامته ... فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبَ بَـمَعْكُمْ بَعْضًا ، أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » (١٢) .

وقوله - تعالى - « اجتنبوا » من الاجتناب يقال : اجتنب فلان فلانا إذا ابتعد عنه ، حتى لا يأنه في جانب والآخر في جانب مقابل . والمراد بالظن المنهى عنه هنا : الظن الذي بأهل الخير والصلاح بدون دليل أو برهان .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والظن أنواع : منه ما هو واجب ، ومنه ما هو محرم ، ومنه ما هو مباح .

فالمحرم : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال ، الظاهر العدالة ، ففي الحديث الشريف : « لا يأكلم والظن فإن الظن أكذب الحديث ... » وفي حديث آخر : « إن الله حرم من المسلم ومن وعرضه وأن يظن به ظن السوء ... »

وقلنا : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال ... لأن من يظاهر بارتكاب

الخبائث... لا يحرم سوء الظن به ، لأن من عرض نفسه للنهم كان أهلا لسوء الظن به .

والظن الواجب يكون فيما تعبدنا الله - تعالى - بعلمه ، ولم ينصب عليه دليلا قاطعا ، فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة الصحيحة ، كقبول شهادة العدل ، وتحرى القبلة... .

والظن المباح مثواله بالشك في الصلاة حين استواء الطرفين... .

وحرمة سوء الظن بالناس ، إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير ، وأما أن تظن شرا لنتقيه . ولا يتعدى أثر ذلك إلى الغير فذلك محمود غير مذموم ، وهو محمل ماورد من أن الحزم سوء الظن... (١) .

أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - ليأمانا حقا ، ابتعدوا ابتعادا تاما عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين ، لأن هذه الظنون السيئة التى لا تستند إلى دليل أو أمانة صحيحة إنما هى مجرد نهم ، تؤدى إلى تولد الشكوك والمفاسد... . فيما بينكم .

وجاء - سبحانه - بلفظ : كثيرا : منكرًا ، لىكى يحتاط المسلم فى ظنونه ، فيتبعد عما هو محرم منها ، ولا يقدم إلا على ما هو واجب أو مباح منها - كما سبق أن أشرنا - .

وقوله - سبحانه - : « إن بعض الظن إثم » ، تعليل للأمر باجتناب الظن . والإثم : الذنب الذى يستحق فاعله العقوبة عليه . يقال : أثم فلان - كعلم - يأنم وإنما فهو آثم . إذا ارتكب ذنبا .

والمراد بهذا البعض المذموم من الظن ما عير عنه سبحانه - قبل ذلك بقوله : « اجتنبوا كثيرا من الظن » .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٩٢ لفضيلة الشيخ محمد على السائس .

أى : إن الكثير من الظنون يؤدي بكم إلى الوقوع فى الذنوب والآثام فابتعدوا عنه .

قال ابن كثير : ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للاهل والأقارب والناس فى غير عمله ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا ، فليجتنب كثيرا منه احتياطا ...

عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن ، فقال رجل : ما الذى يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال : وإذا حسدت فاستغفرا لله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فأمض ، (١) .

وأخرج البيهقي فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخواني من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ضع أمر أخيك على أحسنه ، ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرض نفسه للثمن فلا يلومن إلا نفسه ... ، (١) .

وقوله - سبحانه - : «ولا تجسسوا» أى : خذوا ما ظهر من أحوال الناس ولا تبحثوا عن بواطنهم أو أسرارهم ، أو عوراتهم ومعائبهم ، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله - تعالى - .

فالتجسس مأخوذ من الجسس ، وهو البحث عما خفى من أمور الناس ، وقرأ الحسن وأبو رجاء : «ولا تحسسوا» من الجسس . وهما بمعنى واحد . وقبلهما متغايران التجسس - بالجيم - معرفة الظاهر ، وأن التجسس - بالخاء - تتبع البواطن وقيل بالعكس ...

(١) راجع تفسير ابن كثير ٧ ص ٢٥٧ .

(٢) تفسير الألومى ٢٦ ص ١٥٦ .

وعلى أية حال فالمراد هنا من التجسس والتحسس: النهي عن تتبع عورات المسلمين أخرج أبو داود وغيره عن أبي هريرة الأسلمي قال: خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه . لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين ، فضحه الله - تعالى - في قعر بيته . .

وعن معاوية بن أبي سفيان قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم ، (١) .

ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الغيبة فقال: « ولا يغتاب بعضكم بعضاً والغيبة - بكسر الغين - أن تذكر غيرك في غيابه بما يسوءه . يقال: أغتاب فلان فلانا ، إذا ذكره بسوء في غيبته ، سواء أكان هذا الذكر بصريح اللفظ أم بالكناية ، أم بالإشارة ، أم بغير ذلك .

روى أبو داود وغيره عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أ رأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته ، (٢) .

ثم ساق - سبحانه - تشبيها ينفر من الغيبة أكمل تنفير فقال : « يجب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه . .

والاستفهام للتقرير لأنه من الأمور المسئلة أن كل إنسان يكره أكل لحم أخيه حيا فضلا عن أكله ميتا .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٥٧

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٥٩

والضمير في قوله : « فكريهتموه » يعود على الأكل المفهوم من قوله « يأكل » ، و « ميتا » حال من اللحم أو من الأخ .

أى : اجتنبوا أن تذكروا غيركم بسوء في غيبته ، فإن مثل من يفتاب أخاه المسلم كمثل من يأكل لحمة وهو ميت ، ولا شك أن كل عاقل يكره ذلك وينفر منه أشد النفور .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : قوله تعالى : « يجب أحدكم أن يأكل .. » تمثيل وتصوير لما يناله المقتاب من عرض غيره على أظفح وجه وأفحشه .

وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو الغاية في الكراهة موصولا بالحجة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يجب ذلك . ومنها : أنه - سبحانه - لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وإنما جعله أخا ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ وإنما جعله ميتا ..

وانتصب « ميتا » على الحال من اللحم أو من الأخ ... وقوله : « فكريهتموه » فيه معنى الشرط .

أى : إن صح هذا فقد كرهتموه - فلا تفعلوه - وهى الفاء الفصيحة ، (١) .
والحق أن المتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد فطرت من الغيبة بأبلغ أسلوب وأحكمه ، لأنها من السكاثر والقبائح التى تؤدى إلى تمزق شمل المسلمين ، وإيقاد نار الكراهية فى الصدور .

قال الألوسى ما ملخصه : وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة ، وتنحصر فى ستة أسباب :

الأول : التظلم ، إذ من حق المظلوم أن يشكو ظالمه إلى من يتوسم فيه إزالة هذا الظلم .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .

الثالث . الاستفتاء ، إذ يجوز للمستفتي أن يقول للمفتي : ظلمي فلان هكذا ...

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ، كتجريح الشهود والرواة والمتصددين للإفتاء بغير علم ..

الخامس : المجاهرون بالمعاصي وبارتكاب المنكرات ، فإنه يجوز ذكركم بما تجاهروا به ..

السادس : التعريف باللقب الذي لا يقصده الإساءة كالأعمش والأعرج^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بدعوة المؤمنين إلى التوبة والإجابة فقال : « واثقوا الله إن الله ثواب رحيم » .

أي : واثقوا الله - أيها المؤمنون - ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما أمركم - سبحانه - باجتنابه ، إن الله - تعالى - كثير القبول لتوبة عباده ، الذين يتوبون من قريب ، ويرجعون إلى طاعته رجوعاً مصحوباً بالندم على ما فرط منهم من ذنوب ، ومقروناً بالعزم على عدم العودة إلى تلك الذنوب لا في الحال ولا في الاستقبال ، ومستوفياً لكل ما تستلزمه التوبة الصادقة من شروط .

وهو - أيضاً - واسع الرحمة لعباده المؤمنين ، المستقيمين على أمره . وبذلك نرى هذه الآية الكريمة قد نهت المسلمين عن رذائل ، يؤدي

تركها إلى سعادتهم ونجاحهم ، وفتحت لهم باب التوبة لكي يفلح عنهم. من وقع فيها ...

وبعد هذه الذمات الخمسة للؤمنين ، التي اشتملت على الآداب النفسية والاجتماعية .. وجه - سبحانه - نداء إلى الناس جميعا ، ذكرهم فيه بأصلهم وبميزان قبولهم عنده ، فقال - سبحانه - :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) » .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمر بني بياضة أن يزوجوا امرأة منهم لأبي هند - وكان حجاما للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقالوا يا رسول الله : نزوج بنتا فإنا موالينا - أي : عبيدنا - ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية (١) .

والمراد بالذكر والأنثى : آدم وحواء . أي : خلقناكم جميعا من أب واحد ومن أم واحدة ، فأنتم جميعا تنقسمون إلى أصل واحد ، ويجمعكم وعاء واحد ومادام الأمر كذلك فلا وجه للتفاخر بالأحساب والأنساب .

قال الألوسي : أي : خلقناكم من آدم وحواء ، فالكل سواء في ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب ، كما قال الشاعر :

الناس في عالم التقييل أكفاء
أبوم آدم والأم حواء
وجوز أن يكون المراد هنا : إذا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ،

ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه ، والكلام مساق له (١) .

وقوله : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » بيان لما ترتب على خلقهم على تلك الصورة ، وللحكمة من ذلك .

والشعوب : جمع شعب ، وهو العدد الكثير من الناس يجمعهم - في الغالب - أصل واحد .

والقبائل : جمع قبيلة وتمثل جزءا من الشعب ، إذ أن الشعب بمجموعة من القبائل .

قال صاحب الكشف : والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب .

وهي : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ... وسميت الشعوب بذلك . لأن القبائل تشعبت منها .. (٢) .

والمعنى : خلقناكم - أيها الناس - من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، أي : ليعرف بعضكم نسب بعض ، فينتسب كل فرد إلى آبائه ، ولتتواصلوا فيما بينهم وتتعاونوا على البر والتقوى ، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه أو نسبه أو جاهه .

وقوله - سبحانه - : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » : تحليل لما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر بالأنساب .

أي : إن أرفعكم منزلة عند الله ، وأعلاكم عنده - سبحانه - درجة ... هو أكثركم تقوى وخشية منه - تعالى - فإن أردتم الفخر ففاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح .

« إن الله عليم ، بكل أحوالكم ، خبير ، بما ترونه وتعلنونه من أقوال وأفعال .

وقد ساق الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث التي تنهى عن التفاخر ، وتخص على التقوى ، فقال : « جميع الناس في الشرف بالنسبة الطيفية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله ورسوله ... »

روى البخاري - بسنده - عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الناس أكرمكم ؟ قال : « أكرمهم أرقام ، قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فمن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا : نعم . قال : « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا . »

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . »

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطب الناس يوم فتح مكة فقال : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية - أي تكبرها ، وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر نبي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله . إن الله - تعالى - يقول :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .. الآية » ، ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، (١) .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالرد على الأعراب الذين قالوا : آمنا ، دون أن يدركوا حقيقة الإيمان ، وبين من هم المؤمنون الصادقون .

فقال تعالى :

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَآسَكِنُوا قُورُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَحْثُونَ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمُوا قُلْ لَا تَتَّبِعُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) » .

والإعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابي ، وهم الذين يسكنون البادية .

والمراد بهم هنا جماعة منهم لا كلهم ، لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفع قربات قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قرابة لهم سيدخلهم في رحمته ...

قال الألوسي : قال مجاهد : نزلت هذه الآيات في بني أسد ، وهم قبيلة كانت تسكن بجوار المدينة ، أظهروا الإسلام ، وقلوبهم دغلة ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .

ويروى أنهم قدموا المدينة في سنة مجدية ، فأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : جئناك بالاثقال والعيال . ولم

فقاتلك كما قال لك بنو فلان ... يمينون بذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم .. (١)
وقوله - سبحانه - : وقالت الأعراب آمنا ، من الإيمان . وهو التصديق
القلبي ، والإذعان النفسى ، والعمل بما يقتضيه هذا الإيمان من طاعة لله - تعالى -
ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وقونه : دأبنا ، من الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد الظاهرى
بالجوارح ، دون أن يخالط الإيمان شغاف قلوبهم .

أى قالت الأعراب لك - أيها الرسول الكريم - آمنا وصدقنا بقلوبنا
لكل ما جئت به ، وإمثلنا لما نأمرنا به ، أو تنهاينا عنه .

قل لهم ، لم تؤمنوا ، أى : لم تصدقوا تصديقا صحيحا غن إعتقاد قلب ،
وخلص نية ... ولكن قولوا أسلمنا ، أى : ولكن قولوا نطقنا بكلمة
الإسلام ، وإستسلمنا لما تدعونا إليه إستسلاما ظاهريا طمعا فى الغنائم ، أو
خوفا من القتل .

قال صاحب الكشف : فإن قالت : ما وجه قوله - تعالى - : قل لم
تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل
لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا

قلت : أفاد هذا لنظم تكذيب دعواهم أولا ، ودفع ما لانتحلوه ، فقبل
قل : لم تؤمنوا . وروى فى هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم
يصرح بلفظه ، حيث لم يقل : كذبتهم ، ووضع لم تؤمنوا ، الذى هو نقي
ما إدعوا لإثباته موضعه ...

وإستغنى بالجملة التى هى لم . تؤمنوا ، عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ،
لاستحسان أن يخاطبوا بلفظه مؤداه النهى عن القول بالإيمان ... (٢)

(١) سورة التوبة الآية ٩٤

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٦ ص ١٦٧

وقوله : « ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، جملة حالية من ضمير « قولوا » ، ولما ، لغظة يفيد توقع حصول الشيء الذي لم يتم حصوله .

أى : قولوا أسلفنا والحال أنه لم يستقر الايمان في قلوبكم بعد ، فإنه لو استقر في قلوبكم لما سلكتم هذا المسلك ، ولما منتقم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإسلامكم .

قال الامام ابن كثير ما ملخصه : وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الايمان أخص من الاسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل ، حين سأل عن الاسلام . ثم عن الايمان ... فترقى من الأعم إلى الأخص .

كما يدل على ذلك حديث الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص . أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخطى رجلا ولم يعط آخر فقال سعد : يا رسول الله . مالك عن فلان إن لأراه مؤمنا . فقال : أو مسلما

فقد فرق - صلى الله عليه وسلم - بين المؤمن والمسلم . فدل على أن الايمان أخص من الاسلام .

كما دل هنا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية . إنما هم مسلمون لم يستحكم الايمان في قلوبهم . فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا اليه . فادعوا بذلك ، (٢) .

ثم أرشدنا - سبحانه - إلى ما يكمل إيمانهم فقال : « وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم »

ومعنى : « لا يلتكم ، لا ينقصكم . يقال : لات فلان فلانا حقه - كباع - إذا نقصه .

أى : وإن تطيعوا الله - تعالى - ورسوله ، بأن تخلصوا العبادة ، وتتركوا
المن والطمع ، لا ينقصكم - سبحانه - من أجور أعمالكم شيئاً ، إن الله - تعالى -
واسع المغفرة والرحمة لعباده التائبين توبة صادقة نصوحاً .

ثم بين - سبحانه - صفات عباده المؤمنين الصادقين فقال : : إنما المؤمنون
الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل
الله أولئك هم الصادقون ، .

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان وأكمله ، هم الذين آمنوا بالله - تعالى -
ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم لم يرتابوا ، أى : لم يدخل قلوبهم شيء
من الريية أو الشك فيما أخبرهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .

وأى - سبحانه - بتم التمسك للتراخي ، للتنبيه على أن نفى الريب عنهم ليس
مقصوراً على وقت إيمانهم فقط ، بل هو مستمر بعد ذلك إلى نهاية آجالهم ،
فمكانه - سبحانه - يقول : لأنهم آمنوا عن يقين ، واستمر معهم هذا اليقين إلى
النهاية .

ثم أتبع ذلك ببيان الثمار الطيبة التي ترتبت على هذا الإيمان الصادق
فقال : : وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

أى : وبذلوا من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، ومن أجل دينه
أموالهم وأنفسهم .

قال الألوسى : وتقديم الأموال على النفس من باب الترقى من الأدنى
إلى الأعلى . ويجوز أن يقال : قدم الأموال لحرص الكثيرين عليها ، حتى
لأنهم يهلكون أنفسهم بسببها ... (١) .

• أولئك هم الصادقون ، أى : أولئك الذين فعلوا ذلك هم الصادقون
في إيمانهم .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يخبرهم بأن الله

— تعالى : لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فقال : « قل أتعملون الله بدينكم ، .
وقوله : « أتعملون ، من الإعلام بمعنى الإخبار ، فلذا تعدى بالتضعيف
لواحد بنفسه ، وإلى الثاني بحرف الجر .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الأعراب على سبيل التوبيخ :
أتخبرون الله - تعالى - بما أقمتم عليه من دين وتصدق حيث قلتم آمنا ، على سبيل
التفاخر والتباهي ... والحال أن الله - تعالى - يعلم ما في السموات وما في
الأرض ، دون أن يخفى عليه شيء من أحوال المخلوقات السكائنة فيهما .

وقوله - سبحانه - : « والله بكل شيء عليم ، مقرر لما قبله ومؤكده .
ثم أشار - تعالى - إلى نوع آخر من جفائهم وقلة إدراكهم فقال : « يمنون
عليك أن أسلموا ... » .

والمن : تعداد النعم على الغير ، وهو مذموم من الخلق ، محمود من الله
- تعالى - .

أى : هؤلاء الأعراب يعدون لإيمانهم بك منة عليك ، ونعمه أسدوها إليك
حيث قالوا لك : جئناك بالأموال والعيال ، وقاقلك الناس ولم نقاقلك ...

وقوله : « أن أسلموا ، في موضع المفعول لقوله : « يمنون ، لتضمنه معنى
الاعتداد ، أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوبا بنزع الخافض
أو مجرورا بالحرف المقدر . أى : يمنون عليك بإسلامهم ...

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يدل على
غفلتهم فقال : « قل لا تمنوا على إسلامكم ... » .

أى : قل لهم لا تتفاخروا على بسبب إسلامكم ، لأن ثمرة هذا الإسلام
يعود نفعها عليكم لا على .

ثم بين - سبحانه - أن المنة له وحده فقال : « بل الله يمن عليكم أن
هداكم للإيمان ... » .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما زعمتم من أن إسلامكم يعتبر منة على ، بل الحق أن الله - تعالى - هو الذى يمن عليكم أن أرشدكم إلى الإيمان ، وهذاكم لإياه ، وبين لكم طريقة ، فادعيتم أنفسكم آمنتم مع أنفسكم لم تؤمنوا ولا كنتم أسلمتم فقط .

قال صاحب الكشف : وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أن الكائن من الأعراب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون - كما زعموا - لإيمانا فلما منوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما كان منهم ، قال الله - تعالى - لرسوله : إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به ...

ثم قال : بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه ، حيث هداكم للإيمان - على ما زعمتم - وادعيتم أنفسكم أرشدتم لإياه ، ووفقتهم له إن صح زعمكم ، وصدقت دعوكم ... وفى إضافة الإسلام عليهم ، وإيراد الإيمان غير مضاف ، مالا يخفى على المتأمل ... (١) .

وجواب الشرط فى قوله : « إن كنتم صادقين » محذوف ، يدل عليه ما قبله . أى : إن كنتم صادقين فى إيمانكم فاعتقدوا أن المنة إنما هى لله - تعالى - عليكم ، حيث أرشدكم إلى الطريق الموصل إلى الإيمان الحق .

وشبيه فى المعنى بهذه الآية قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأَنْصار فى إحدى خطبه : يا معشر الأنصار ، ألم أجِدكم ضاللا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فأنفكم الله بي . وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ وكان - صلى الله عليه وسلم - كلما قال شيئا ، قالوا : الله ورسوله أَمَن .

والحق أن هداية الله - تعالى - لعبده إلى الإيمان ، تعتبر منة منه - سبحانه - لا تقديها منة ، ونعمة لا تقار بها نعمة ، ' وعطاء ساميا جليلا منه - تعالى - لا يساميه عطاء فله - عز وجل - الشكر الذى لا تحصىه عبارة على هذه النعمة ، ونسأله - تعالى - أن يديمها علينا حتى نلقاه ..

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله: **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .** ، أى : **لأنه - تعالى - يعلم ما خفى وغاب عن عقول الناس من أحوال السموات والأرض ، والله بصير تعملون ، - أيها الناس - لا يعزب عنه شيء من أفعالكم أو أفعالكم .**

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة الحجرات ، ، تلك السورة التي رسمت للناس معالم عالم كريم ، تشع فيه الآداب السامية ، والأخلاق العالية ، والقيم الجليلة ، وتختفي فيه ما يتعارض مع هذه المعاني كالحقد والغيبة والتقاتل والتفاخر بالأحساب والأنساب .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع نفوسنا ، وأنس قلوبنا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجح عفوريه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر - صباح الثلاثاء ١٤٠٦/٤/٢ هـ ١٩٨٦/١/١٤ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ ق

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة دق ، هي السورة المخسرة في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة المرسلات .

ويبدو أن نزولها كان في أوائل العهد المبكي ، إذ من يراجع ترتيب السور على حسب النزول يرى أنها لم يسبقها سوى اثنتين وثلاثين سورة ، ومعظم السور التي سبقتها كانت من الجزء الأخير من القرآن الكريم (١) .

وهي من السور المبكية الخالصة ، وعدد آياتها خمس وأربعون آية ، وتسمى - أيضا - بسورة الباسقات .

٢ - وقد ذكر الإمام ابن كثير في مقدمة تفسيره لها جملة من الأحاديث في فضلها ، منها ما رواه مسلم وأهل السنن ، عن أبي واقد الليثي ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ في العيد بسورة دق ، وبسورة اقتربت الساعة

وروى الإمام أحمد عن أم هشام بذت حارثة قالت : ما أخذت دق والقرآن المجيد ، إلا على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كان يقرأها كل يوم جمعة إذا خطب الناس . . .

ثم قال ابن كثير : والقصد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور ، ولعماد والقيام ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب

(١) راجع الإتيان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للإمام السيوطي .

والعقاب ، والترغيب والترهيب (١) .

٣ - والحق ، أن المتأمل في هذه السورة الكريمة يراها قد اشتملت على ما ذكره الإمام ابن كثير ، بأسلوب بليغ بهيع .

فهي تبدأ بالثناء على القرآن الكريم ، ثم تذكر دعاوى المشركين وترد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ثم توبخهم على عدم تفكيرهم في أحوال هذا الكون الزاخر بالآيات والمكائنات الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

قال تعالى - : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج . والارض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

٤ - ثم تذكرهم - أيضا - بسوء عاقبة المكذابين من قبلهم ، كقوم نوح وهاد وثمود ، وقوم فرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة . . .

ثم تتبع ذلك بتذكيرهم بعلم الله - تعالى - الشامل لكل شيء ، وبسكرة الموت وما يتبعها من بعث وحساب ، وثواب وعقاب . . .

قال - تعالى - : وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد

٥ - ثم تختتم السورة الكريمة ، بتسليم الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، وترشده إلى العلاج الذي يعينه على مداومة الصبر ، كما تحكى له أحوالهم يوم القيامة ليزداد يقينا على يقينه ، وتأمره بالمواظبة على تبليغهم بما أمره الله - تعالى - بتبليغه ،

لنستمع إلى قوله - تعالى - : « قاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع

يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحي ونحيي ونميت وإليها المصير . يوم تشقق الأرض عنهم مراعا ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون وهما أنت عليهم مجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد .

وهكذا تطوف بنا السورة الكريمة في أعماق هذا الكون ، وفي أعماق النفس الإنسانية ، منذ ولادتها إلى بعثها ، إلى حسابها ، إلى جزائها . . . وذلك كله بأسلوب مؤثر بديع ، يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

١٩٨٦/١/١٧ م

١٤٠٦/٥/٦ هـ

التفسير

قال الله تعالى: «ق»، والقرآن المجيد (١) بل يحيبوا أن جاءهم مُنْذِرٌ
منهم، فقال الكافرونَ هَذَا شَيْءٌ يَحْيَبُ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ (٣) قد علمنا ما تنقصُ الأرضُ منهم، وعندنا كتابٌ
حَفِيفٌ (٤) بل كذبوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءهم فهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ
يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بَهِيجٍ (٧) تَبْهِيرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً مُبَارَكًا، فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ
لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَدْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ
الْخُرُوجُ (١١) .

سورة «ق»، من السور القرآنية، التي افتتحت ببعض حروف التهجى
وأقرب الأقوال إلى الصواب في معنى هذه الحروف، أنها جى - بها على سبيل
الإيقاظ والتنبيه للذين نحداهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول هؤلاء المعارضين في أن القرآن من عند الله :
هاكم القرآن تروونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومنظوماً
من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم في شك في كونه منزلاً من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو
عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله .

فمجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - سبحانه -

وهذا الرأي وهو كون د ق ، من الحروف الهجائية ، هو الذى نظمته
إليه ، وهناك أقوال أخرى فى معنى هذا الحرف ، تركناها لضعفها كقول
بعضهم إن د ق ، اسم جبل يحيط بجميع الأرض ... وهى أقوال لم يقدم دليل
نقل أو عقل على صحتها .

قال ابن كثير : وقد روى عن بعض السلف ، أنهم قالوا د ق ، جبل يحيط
بالأرض ، يقال له جبل د ق ، وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل
التي أخذها عنهم بعض الناس ... (١) .

والولو فى قوله - تعالى - : « والقرآن المجيد » ، والمقسم به القرآن
الكريم ، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه ، وهو استبعادهم لبعثة
الرسول - صلى الله عليه وسلم - . وتكذيبهم للبعث والحساب ...

وقوله : « المجيد » ، صفة للقرآن . أى : ذى المجد والشرف وكثرة الخير .

ولفظ المجيد مأخوذ من المجد ، بمعنى السعة والكرم ، وأصله من مجدت
الإبل وأجدت ، إذا وقعت فى مرعى مخصب ، واسع ، الجنبات ، كثير
الأعشاب .

والمعنى : أقسم بالقرآن ذى المجد والشرف ، وذى الخير الوفير الذى يجد
فيه كل طالب مقصوده إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبليغه عن
ربك من أن البعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق .. ، ولسكن الجاحدين
لم يؤمنوا بذلك ، .

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وهو أنت يا محمد ، فلم يؤمنوا بك ،
بل قابلوا دعوتك بالإنكار والتعجب .

« فقال الكافرون هذا شئ عجيب ، أى : هذا البعث الذى تخبرنا عنه يا محمد
شئ يتعجب منه ، وتقف دونه أفهامنا حائرة .

قال الألوسى ماملخصه : قوله - تعالى - : : بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . . . ، بل للاضراب عما ينهى عنه جواب القسم المحذوف ، فكأنه قيل : لما أنزلنا هذا القرآن لتنذر به الناس ، فلم يؤمنوا به ، بل جعلوا كلا من المنذر به عرضة للتكبر والتعجب ، مع كونهما أوفق شئ لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول

وقوله : : أن جاءهم ، بتقدير لأن جاءهم . ومعنى : منهم ، أى : من جنسهم وضمير الجمع يعود إلى الكفار . . .

وقوله : : فقال الكافرون هذا شئ عجيب ، تفسير لتعجبهم وإضمارهم أولا ، للاشعار بتعجبهم بما أسند إليهم ، وإظهارهم ثانيا ، لتسجيل الكفر عليهم (١) .

وقوله - سبحانه - : : أنذامتنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، تقرير للتعجب ، وتأكيدهم للانكار الصادر عنهم ، والعامل فى (إذا) مضمرة لدلالة ما بعده عليه . .

أى : أحين نموت ونصير ترابا وعظاما نرجع إلى الحياة مرة أخرى ، كما يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكما يقول القرآن الذى نزل عليه . لا ، إنما لن نبعث ولن نعود إلى الحياة مرة أخرى ، وما يخبرنا به محمد - صلى الله عليه وسلم - من أن الرجوع إلى الحياة مرة أخرى حق ، كلام بعيد عن عقولنا وأفهامنا .

فاسم الإشارة (ذلك) يعود إلى محل النزاع وهو الرجوع إلى الحياة مرة أخرى ، والبعث بعد الموت . والرجوع . يقال : رجعت أرجمته رجعا ورجوها بمعنى أعدته . . ومنه قوله - تعالى - : (فإن رجعتك الله إلى طائفة منهم) .

أى : ذلك الرجوع إلى الحياة مرة أخرى بعيد عن الأفهام ، وعن العادة ، وعن الإمكان .

وبعد هذا التصوير الأمين لحججهم وأقوالهم ، ساق - سبحانه - الرد الذي يدفع تلك الحجج والأقوال فقال : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » .
 أى : قد علمنا علما تاما دقيقا مانا كلة الأرض من أجسادهم بعد موتهم ، ومن علم ذلك لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى .

وقوله - سبحانه - : « وعندنا كتاب حفيظ ، تأكيد وتقرير لما قبله .

أى : وعندنا بجانب علمنا الشامل الدقيق . كتاب حافظ لجميع أحوال العباد ، ومسجلة فيه أقوالهم وأفعالهم والمراد بهذا الكتاب : اللوح المحفوظ .

ثم كشف - سبحانه - عن حقيقة أحوالهم ، وعن الأسباب التي دفعتهم إلى إظهار الحق على الباطل فقال : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريج » .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بإنكارهم للبعث ... بل جاءوا بما هو أشنع وأفظع منه ، وهو تكذيبهم لنبيوك - أيها الرسول الكريم - تلك النبوة الثابتة بالمعجزات الناصعة ، ومن مظاهر هذا التكذيب أنهم تارة يقولون عنك ساحر ، وتارة يقولون عنك كاهن وتارة يصفونك بالجنون .

فهم في أمر مريج ، أى : مضطرب مختلط ، بحيث لا يستقرون على حال . يقال : مرج الأمر - بزة طرب - إذا اختلط وتزعزع ، وفقد الثبات والاستقرار والصلاح .. ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، إذا فسدت وعتمتهم الخيانة ، ومرج الخاتم في أصبع فلان ، إذا تخلخل واضطرب لشدة هزال صاحبه .

وفي هذا الرد عليهم تصوير بديع معجز ، حيث بين - سبحانه - بأنه عليم بما تأكله الأرض من أجسادهم المفقية فيها ، ويتناقص هذه الأجساد وريدا وريدا ، وأن كل أحوالهم مسجلة في كتاب حفيظ ، وأنهم عندما فارقوا

الحق الثابت وكذبوه ، مادت الأرض من تحتهم واضطربت ، واختلطت عليهم
الأمور والتبست ، فصاروا يلقون النهم جزافا دون أن يستقروا على رأى ،
أو يجتمعوا على كلمة ...

ثم شرعت السورة الكريمة في بيان الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، وعلى
أن البعث حق ، وعلى أن استبعادهم له إنما هو لون من جهالاتهم وانهماس
بصائرهم ، فقال - تعالى :

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ..
والاستفهام للانكار والتعجب من جهلهم ، والهمزة متعلقة بمحذوف بإلقاء
عاطفة عليه أى : أعرضوا عن آيات الله فى هذا الكون ، فلم ينظروا إلى
السماء فوقهم . كيف بنيناها هذا البناء العجيب ، بأن رفعناها بدون عمد ،
وزيناها بالكوكب ، وحفظناها من أى تصدع أو تشقق أو تفتق ..

فقوله : «فروج» جمع فرج ، وهو الشق بين الشيتين . والمراد : سلامتها
من كل عيب وخلل .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « الذى خلق سبع
سماوات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى
من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو
حسير (١) » .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى بسط الأرض ، بعد بيان مظاهر قدرته
فى رفع السماء . فقال « والأرض مددناها ، أى : والأرض بسطناها ومددناها
بقدرتنا ، وجعلناها مترامية الأطراف والمناكب ، كما تشاهدون ذلك بأعينكم .
قالوا : وامتدادها واتساعها لا ينافى كرويتها ، لأن عظم سطحها يجعل
الناظر إليها يراها كأنه مسطحة محدودة .

«وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِي، أَي: وَأَلْقَيْنَا فِيهَا جِبَالًا ثَوَابِتَ تَمْنَعُهَا مِنَ
الاضْطِرَابِ ...»

فَقَوْلُهُ: «رِوَاسِي»، جَمْعُ رَاسِيَةٍ بِمَعْنَى نَابِتَةٍ وَهُوَ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ.
«وَأَنْبَتْنَا فِيهَا، أَي: فِي الْأَرْضِ» مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهَيْجٍ، أَي: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ صَنْفٍ حَسَنٍ بِهَيْجٍ وَيُسَرُّ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ مَا خُوِذَ مِنَ الْبَهْجَةِ بِمَعْنَى الْحُسْنِ.
يُقَالُ: بَهَجَ الشَّيْءُ - كَطَرَفَ - فَهُوَ بِهَيْجٍ أَي: حَسَنٌ جَمِيلٌ.
وَقَوْلُهُ: «تَبْصُرَةٌ وَذَكَرَى ...»، عِلْمَانِ لِمَا تَقْدُمُ مِنَ الْكَلَامِ، وَهُمَا
مَنْصُوبَتَانِ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ.

أَي: فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا مِنْ مَدِّ الْأَرْضِ، وَمِنْ تَثْبِيثِهَا بِالْجِبَالِ، وَمِنْ لِنَابِتِ كُلِّ
صَنْفٍ حَسَنٍ مِنَ النَّبَاتِ فِيهَا، لِأَجْلِ أَنْ تَبْصُرَ عِبَادُنَا بِدَلَائِلِ وَحْدَانِيَّتِنَا
وَقُدْرَتِنَا، وَذَكَرَ هُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ نَحْوُ خَالِقِهِمْ مِنْ شُكْرِ وَطَاعَةٍ.
وَقَوْلُهُ: «لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، مِمَّا تَلَقَّى بِكُلِّ مِنَ الْمَصْدَرَيْنِ السَّابِقَيْنِ وَهُمَا:
التَّبْصُرَةُ وَالذِّكْرَى.

أَي: هَذِهِ التَّبْصُرَةُ وَالذِّكْرَى كَاتِنَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، أَي: كَثِيرِ
الرَّجُوعِ إِلَى رَبِّهِ بِالتَّوْبِ فِي بَدَائِعِ صُنْعَتِهِ، وَدَلَائِلِ قُدْرَتِهِ.

ثُمَّ انْتَقَلَتْ الْآيَاتُ إِلَى بَيَانِ مَظَاهِرِ قُدْرَتِهِ فِي إِزَالِ الْمَطَرِ، بَعْدَ بَيَانِ
مَظَاهِرِ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا اشْتَمَلْنَا عَلَيْهِ مِنْ كَاتِنَاتٍ فَقَالَ
- تَعَالَى -: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا، أَي: مَاءً كَثِيرَ الْمَنَافِعِ وَالْخَيْرَاتِ
لِلنَّاسِ وَالْدِّابِّ وَالزَّرْعِ.

«فَأَنْبَتْنَا بِهِ، أَي: بِذَلِكَ الْمَاءِ» دَجَنَاتٍ، أَي: بِسَاتِنِينَ كَثِيرَةً زَاخِرَةً
بِالنَّمَارِ ...»

«وَحَبَّ الْحَصِيدِ، أَي: وَحَبَّ النَّبَاتِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْصَدَ عِنْدَ اسْتَوَائِهِ
كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَمَا يَشْبَهُهُمَا مِنَ الزَّرْعِ.

فالخصيد بمعنى المحصود ، وهو صفة الموصوف محذوف أى ، وحب
الزراع الخصيد . فهذا التركيب من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه
للعلم به .

وخص الحب بالذكر ، لاحتياج الناس إليه أكثر من غيره ، فصار كأنه
المقصود بالبيان .

وقوله : « والنخل ... » معطوف على « جنات » و « باسقات » حال من
النخل . ومعنى « باسقات » مرتفعات ، من البسوق بمعنى الارتفاع والعلو .
يقال بسق فلان على أصحابه - من باب دخل ، إذا قامهم وزاد عليهم في
الفضل ...

والنخل : اسم جنس يذكّر ويؤنث ويجمع . وخص بالذكر مع أنه من
جملة ما اشتملت عليه الجنات ، لمزيد فضله وكثرة منافعه .

وجملة « لها طلع نصيد » في محل نصب على الحال من النخل .

والطلع : أول ما يخرج من ثمر النخل . ويسمى المكّة - رعى . يقال : طلع
الطلع طلوعاً ، إذا كان في أول ظهوره .

والنصيد بمعنى المنضود . أى : المتراكب بعضه فوق بعض مأخوذ من نصد
فلان المتاع ينصده ، إذا رقبه ترقبياً حسناً .

أى : وأنبتنا - أيضاً - فى الأرض بعد إزالتها الماء عليها من السحاب ،
النخل الطوال ، الزاخر بالثمار الكثيرة ، التى ترقب بعضها على بعض ، بطريقة
جميلة ...

وقوله : « رزقا للعباد ، بيان للحكمة من إنزال المطر وإنبات الزرع ...

أى : أنبتنا ما أنبتنا من الجنات ومن النخل الباسقات ... ليكون ذلك
رزقا نافعا للعباد ...

« وأحيينا به بلدة ميتا ، أى : وأحيينا بذلك الماء الذى أنزلناه ، بلدة كانت

مجدبة ، وأرضا كانت خالية من النبات والزررع ، وتذكير ميتا ، ليكون البلدة بمعنى المسكان .

وقوله : كذلك الخروج ، جملة مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث ، مثله كمثل هذا الإحياء للأرض التي كانت جدباء ميتة ، بأن أُنبتت من كل زوج بهيج بعد أن كانت خالية من ذلك ،

فوجه الشبه بين إحياء الأرض بالنبات بعد جديدها ، وبين إحياء الإنسان بالبعث بعد موته : استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم .

قال ابن كثير : قوله : : وأحيينا به بلدة ميتا . . . ، وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأُنبتت من كل زوج بهيج . . . وذلك بعد أن كانت لا نبات فيها ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى ، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس ، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث . . .

كقوله - تعالى - : : د خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس . . . وقوله : : د أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ، وقوله - تعالى - : : ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحيها لحجي الموتى ، إنه على كل شيء قدير ^(١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وعلى أن البعث حق ، وأنه آت لا ريب فيه .

• • •

وبعد هذا العرض البديع لمظاهر قدرة الله - تعالى - في هذا الكون ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٥ .

ولما ظهر نعمه على خلقه، سافت السورة الكريمة جانباً من أحوال المكذبين للرسول السابقين، تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه، فقال - تعالى - :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْشَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ ثُبَعٍ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَمَّيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) » .

أى : لانحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابك من أذى من هؤلاء المشركين الجاحدين المكذبين. فقد سببهم إلى هذا التكذيب والكفر والجهود . قوم نوح - عليه السلام - ، فإنهم قد قالوا فى حقه إنه مجنون ، كما حكى عنهم ذلك فى قوله - تعالى - : « كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » . وقوله : « وأصحاب الرس ، معطوف على ما قبله . والرس فى لغة العرب : البر الذى لم تبين بعد بالحجارة ، وقيل : هى البر مطلقاً .

والمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم واحداً من أنبيائه ، فكذبوه ورسوه فى تلك البر ، أى : ألغوا به فيها فأهلكهم - سبحانه - بسبب ذلك .

وقيل : هم الذين قتلوا حبيبا النجار عندما جاءهم بدعوه إلى الدين الحق ، وكانت تلك البر بأنطاكية ، وبعد قتلهم له ألغوه فيها .

وقيل : هم قوم شعيب - عليه السلام - . . .

واختار ابن جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين جاء الحديث عنهم فى سورة البروج .

والمراد بـثمود : قوم صالح - عليه السلام - الذين كذبوه فأهلكهم الله تعالى .

والمراد بعاد : قوم هود - عليه السلام - الذين اغتروا بقوتهم ، وكذبوا نبيهم ، فأخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر .

« وفرعون ، هو الذى أرسل الله إليه موسى - عليه السلام - ، فكذبه وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ، » .

« وإخوان لوط ، هم قومه الذين أتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها . قالوا : ووصفهم الله - تعالى - بأنهم إخوانه ، لأنه كانت تربطه بهم رابطة المصاهرة حيث إن أمراؤه - عليه السلام - كانت منهم . »

« وأصحاب الأيكة ، هم قوم شعيب - عليه السلام - ، كما قال - تعالى - : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ...) (١) . »

والأيكة : اسم لمنطقة كانت مليئة بالأشجار ، ومكانها - فى الغالب - بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة : ولعلها المنطقة التى تسمى بمعان .
وكان قوم شعيب يعبدون الأوثان ، ويطلقون فى المسكيات ، فنهاهم شعيب عن ذلك ، وليكنهم كذبوه فأهلكهم الله - تعالى - .

« وقوم تبع » وهو تبع الحميرى اليماني ، وكان مؤمنا وقومه كفار ، قالوا : وكان اسمه سعد أبو كرب . وقد أشار القرآن إلى قصتهم فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « أهم خير أم قوم تبع ... » (٢) .

والتنوين فى قوله - تعالى - « كل كذب الرسل ... » عوض عن المضاف إليه . أى : كل قوم من هؤلاء الأقوام السابقين كذبوا رسولهم الذى جاءهم هدايتهم . وقوله : « فحق وعيد ، بيان لما حل بهم بسبب تكذيبهم لرسولهم . أى : كل واحد من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم ، فكانت نتيجة ذلك أن وجب ونزل بهم وعيدى ، وهو العذاب الذى توعدتهم به ، كما قال - سبحانه - : فكللا

(١) سورة الشعراء الآية ١٧٦ وما بعدها .

(٢) سورة الدخان الآية ٣٧

أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليعظيهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

قال ابن كثير : قوله : « كل كذب الرسل . . . » أي : كل من هذه الآم ، وهؤلاء القرون كذب رسوله ، ومن كذب رسولا فكأما كذب جميع الرسل .
« فخر وعيد ، أي : فخر عليهم ما أوعدهم الله - تعالى - على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يهيبهم ما أصابهم ، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك ، (١) .

وبعد هذا العرض لمصارع المكذبين ، عادت السورة إلى تقرير الحقيقة التي كفر بها الجاهلون والجاحدون ، وهي أن البعث حق ، فقال - تعالى - : « أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) والاستفهام للانكار والنفي ، وقوله (عينا) من العمى بمعنى العجز . يقال : كسى فلان بهذا الشيء ، إذا عجز عنه ، وانقطعت حيلته فيه . ولم يهتد إلى طريقة توصله إلى مقصوده منه .

واللبس : الخلط . يقال : لبس على فلان الأمر - من باب ضرب - إذا اشتبه واختلط عليه ، ولم يستطع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ .

أي : أفعمزت قدرتنا عن خلق هؤلاء الكافرين ولإيجادهم من العدم ، حتى يتوهموا أننا عاجزون عن إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ؟

كلا إننا لم نعجز عن شيء من ذلك ، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء ، ولكن هؤلاء الكافرين لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الشيطان عليهم ، قد صاروا في لبس وخلط من أمرهم ، بدليل أنهم يقرون بأننا نحن الذين خلقناهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، ومع ذلك فهم يشكرون قدرتنا على (الخلق الجديد) أي : على إعادتهم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد موتهم .

فقوله - تعالى - : « بل هم لبس من خلق جديد ، أى : بل إن هؤلاء الكافرين فى خلط وشك وحيرة من أن يكون هناك خلق جديد أى خلق مستأنف لهم بعد موتهم . مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لعلموا أن القادر على الخلق من العدم ، قادر على إعادة هذا المخلوق من باب أولى ، كما قال - سبحانه - : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه »

قال الألوسى : وقوله : « بل هم لبس من خلق جديد ، عطف على متدر يدل عليه ما قبله ، كأن قيل : إنهم معترفون بالآول غير منكرين قدرتنا عليه ، فلا وجه لإنكارهم للثانى ، بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف ... » (٢) .
وقال بعض العلماء ماملخصه فى الآية أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول ؟ ولم فكر اللبس ؟ ولم فكر الخلق الجديد ؟

وللإجابة على ذلك نقول : عرف الخلق الأول للتعميم والتهويل والتفخيم ومنه تعريف المذكور فى قوله « يهب لمن يهب ، إنا أنا ويهب لمن يشاء الذكور » .

وأما التذكير فأمره منقسم ، فأحيانا يقصد به التفخيم ، من حيث ما فيه من الإبهام ... وهو المقصود هنا من تذكير لفظ « لبس » ، كأنه قيل : بل هم فى لبس أى لبس .

وأحيانا يقصد به التقليل والتهوين لأمره ، وهو المقصود هنا بقوله من « خلق جديد » ، أى أن هذا الخلق الجديد شئ هين بالنسبة إلى الخلق الأول .. وإن كان كل شئ هين بالنسبة إلى قدرة الله - تعالى - . (٣) .

* * *

(١) سورة الروم . الآية ٢٧ :

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٦ ص ١٧٨ .

(٣) راجع حاشية تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٨٢ .

ثم صورت السورة الكريمة بعد ذلك علم الله - تعالى - الشامل لكل شيء تصويراً يأخذ بالألأباب ، وبينت سكرات الموت وغمراته ، وأحوال الإنسان عند البعث ... بياناً رهيباً مؤثراً ، قال - تعالى - :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ بِأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) » .

والمراد بالإنسان في قوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ... » جنسه .

وقوله : « توسوس » من الوسوسة وهو الصوت الخفي . والمراد به حديث الإنسان مع نفسه . قال الشاعر :

وأكدب النفس إذا حدثتها
إن صدق النفس يزرى بالأمل
وما ، موصولة ، والضمير عائد عليها والباء صلة . أى : ونعلم الأمر الذي تحدثه نفسه به .

ويصح أن تكون مصدرية ، والضمير للإنسان والباء للتعدية ، أى ونعلم وسوسة نفسه لإياه .

والمتمدبر في هذه الآية يرى أن افتتاحها يشير إلى مضمونها ، لأن التعبير بخلقنا ، يشعر بالعلم التام بأحوال المخلوق ، إذ خالق الشيء وصانعه أدري بتركيب جزئياته .

أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا هذا الإنسان ، ونعلم علما تاما شاملا ما تحدثه به نفسه من أفسكار وخواطر ...

وقوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، تقرير وتوكيد لما قبله .
وحبل الوريد : عرق في باطن العنق يسرى فيه الدم ، والإضافة بيانية .
أى : حبل هو الوريد .

أى : ونحن بسبب علمنا التام بأحواله كلها ، أقرب إليه من أقرب شيء لديه ، وهو عرق الوريد الذى فى باطن عنقه ، أو أقرب إليه من دمائه التى تسرى فى عروقه .

فالمقصود من الآية السكينة ببيان أن علم الله - تعالى - بأحوال الإنسان ، أقرب إلى هذا الإنسان ، من أعضائه ومن دمائه التى تسرى فى تلك الأعضاء .
والمقصود من القرب : القرب عن طريق العلم ، لا القرب فى المكان لاستحالة ذلك عليه - تعالى - .

قال القرطبي : قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » ، يعنى الناس ... ونعلم ما توسوس به نفسه ، أى : ما يختلج فى سره وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى استخفى بها

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » هو حبل العاتق ، وهو ممتد من ناحية خلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال ... والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين ... وهذا تمثيل لشدة القرب . أى :
« ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو من نفسه ... »
وهذا القرب ، هو قرب العلم والقدرة ، وأبماض الإنسان يحجب البعض البعض ، ولا يحجب علم الله - تعالى - شيء ، (١) .

وقال القشيري : فى هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح

وأنس وسكون قلب لقوم، (١).

وعلى هذا التفسير الذي سرنا عليه ، وسار عليه من قبلنا جمهور المفسرين ، يكون الضمير «نحن» يعود إلى الله - تعالى - ، وجىء بهذا الضمير بلفظ «نحن» على سبيل التعظيم .

وبرى الإمام ابن كثير أن الضمير هنا يعود إلى الملائكة ، فقد قال - رحمه الله - ؛ وقوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، يعنى ملائكته - تعالى - . أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . ومن تأوله على العلم فإما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع - تعالى الله وتقدس - . ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : « وأنا أقرب إليه من حبل الوريد » وإنما قال : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، كما قال فى المختصر ، ونحن أقرب إليه منكم ، يعنى ملائكته . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، بإقدار الله لهم على ذلك ، (٢) .

وهذا الذى ذهب إليه ابن كثير وإن كان مقبولا - لأن قرب الملائكة من العبد بإقدار الله لهم على ذلك - إلا أن ما ذهب إليه الجمهور من أن الضمير «نحن» الله - تعالى - ، أدل على قرب الله - سبحانه - لأحوال عباده ، وأظهر فى معنى الآية ، وأزجر للإنسان عن ارتكاب المعاصى
و «إذ» فى قوله - تعالى - : «إذ يتلقى المتلقيان» . . . ، ظرف منصوب بقوله «أقرب» . . .

أى : «نحن أقرب إليه من حبل الوريد» ، فى الوقت الذى يتلقى فيه «المتلقيان» وهما الملائكان جميع ما يصدر عن هذا الإنسان .
وهو - سبحانه - وإن كان فى غير حاجة إلى كتابة هذير الملائكين لما يصدر عن الإنسان ، إلا أنه - تعالى - قضى بذلك لحكم متعددة . منها إقامة الحججة على العبد يوم القيامة ، كما أشار - سبحانه - إلى ذلك فى قوله : «ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا» . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

ومفعول التلقى في الفعل الذي هو يتلقى ، وفي الوصف الذي هو المتلقيان ، محذوف ، والتقدير إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه . وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » ، بيان ليقظة الملوكين وحرصهما على تسجيل كل ما يصدر عن الإنسان .

و « قعيد » ، بمعنى المقاعد ، أي الملازم للإنسان ، كالجلوس بمعنى المجالس . والمعنى : عن يمين الإنسان ملك ملازم له لكتابة الحسنات ، وعن الشمال كذلك ملك آخر ملازم له لكتابة السيئات وحذف لفظ قعيد من الأول للدلالة الثاني عليه ، كما في قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرائى مختلف

أي : نحن راضون بما عندنا وأنت راض بما عندك ...

ثم أكد - سبحانه - كل هذه المعاني بقوله : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، أي : ما يتكلم هذا الإنسان من كلام ، وما يفعل من فعل ، إلا ولديه ملك رقيب ، أي : حفيظ . يكتب أقواله « عتيد » ، أي : مهياً لذلك ، حاضر عنده لا يفارقه .

يقال : عتد الشيء - كسكرم - عتادة وعتادا ، أي : حضر ، فهو عتد وعتيد . ويتعدى بالهمزة وبالتضعيف ، فيقال : أعتده صاحبه وعتده ، إذا هيأه وأعدّه .

والمراد أن الملوك الذين أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله ، كلاهما مراقب لأعمال الإنسان ، حاضر لكتابتهما .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » وقوله - سبحانه - « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسالنا لديهم يكتبون » ، وقوله - عز وجل - « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وبعض العلماء يرى أن الملائكين يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض ... لأن قوله - تعالى - « من قول ، فمكرة في سياق النفي فتعم كل قول ... »

وبعضهم يرى أن الملائكين لا يكتبان من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب وقالوا : إن في الآية نعتا عذوفا ، سوغ حذفه العلم به ، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب ، وتقدير النعت المحذوف : ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء إلا ولديه رقيب عتيد ... (١)

ثم بين - سبحانه - حالة الإنسان عند الاحتضار فقال : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، »

أى : وجاءت لكل إنسان سكرة الموت وشده وغمرته وكرهته ، ملتبسة بالحق الذى لا شك فيه ولا باطل معه ، ذلك ، أى : الموت الذى هو نهاية كل حى ما كنت منه تحيد ، أى : تميل وتهرب وتفر منه فى حياتك . يقال : حاد فلان عن الشيء يحيد حيدة ... إذا تمنى عنه وإبتعد .

أخرج : الإمام أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال : لما حضر أبو بكر الموت ، بكى لإبنته عائشة ، وتمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغنى الحذار عن الفقى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال لها أبو بكر - رضى الله عنه - ، لا تقولى ذلك يا ابنتى ؛ ولكن قولى : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ، . »

ثم بين - سبحانه - نهاية هذه الدنيا فقال : « ونفخ فى الصور ، أى : النفخة الأخيرة ... »

ذلك ، يوم الوعيد ، أى : ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ الأخير

الصور ، هو الوقت الذي نوبد الله - تعالى - فيه كل كافر بسوء المصير كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء .

وخصر الوعيد بالذكر ، لتحويل هذا اليوم ، وتحذير العصاة مما سيكون فيه .
 « وجاءت كل نفس ، من النفوس المؤمنة والكافرة والمطبعة والعاصية ، معها سائق شهيد ، أى : معها ملك يسوقها إلى المحشر ، ومعها ملك آخر يشهد عليها .. ثم يقال للكافر في هذا اليوم العصيب : « لقد كنت في غفلة تامة من هذا الذي تعانيه اليوم وتشاهده ، فكشفنا عنك غطاءك ، أى : فأزلنا عنك في هذا اليوم تلك الغفلة التي كانت تحجبك عن الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح .

« فبصرك اليوم حديد ، أى : فبصرك ونظرك في هذا اليوم نافذ قوى ، تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره في الدنيا ، من البعث والحساب والثواب والعقاب .

يقال : فلان حديد مبصر ، إذا كان شديد الإبصار بحيث يرى أكثر مما يراه غيره .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت بأسلوب بليغ مؤثر ، شمول علم الله - تعالى - لكل شئ . كما بينت حالة الإنسان يوم القيامة ، يوم تأنى كل نفس ومعها سائق وشهيد ..

• • • •

ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله قرين الإنسان يوم القيامة فيقول :

« وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ (٢٣) أَلَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

آخِرَ ، فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ خَرِينَهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ
وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)
يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأَزْلَفَتْ
الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ لِكُلِّ أُوَابٍ
حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ (٣٥) .

والمراد بقريته في قوله - تعالى - : « وقال قريته . . . » ، الملك الموكل
بكتابة ما يصدر عن الإنسان في حياته ، وجاء به مفردا مع أن لكل إنسان
قريتين لأن المراد به الجنس .

ويصح أن يكون المراد بقريته هنا ، شيطانه الذي أضله وأغواه . . .

قال الألوسي ما ملخصه : وقوله : « وقال قريته . . . » أي : شيطانه
المقبض له في الدنيا ، ففي الحديث : « ما من أحد إلا وقد وكل به قريته من
الجن . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن الله - تعالى - أعانني
عليه . فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » ،

وقوله « هذا ما لدى عتيد » إشارة الشخص الكافر نفسه . أي : هذا
ما عندي قد هيأته لهم

وقال قتادة : قريته : الملك الموكل بسوقه وبكتابة سيئاته ، يقول مشيرا
إلى ما في صحيفته وما فيها من سيئات : هذا الذي في صحيفته من سيئات مكتوب
عندي ، وحاضر للعرض . . . و « ما » نكرة موصوفة بالظرف وبعتهيد ،

أو موصولة والظرف صلتها ، وه عتيد « خير بعد خبر لإيتم الإشارة ، أو خبر لمبتدأ محذوف ... » (١)

ثم يقال بعد ذلك للملكين الموكلين به . أو للسائق والشهيد : « ألقيا في جهنم بكل كفار عنيد » أى : اقدما في جهنم بإحتقار وغضب كل كفار أى : كل مبالغ في الجحود والكفر ، عنيد ، أى : معاند للحق مع علمه بأنه حق ...
يقال : عتيد فلان عن الحق - باب من باب قعد - فهو عائد وعنيد . وعنود إذا ركب الخلف والعصيان . وأى أن ينقاد للحق . مع علمه بأنه حق مأخوذ من العتيد وهو عظم يعرض في الحلق فيحول بين الطعام وبين دخوله إلى الجسم وقوله ، مناع للخير معتد مريب ، صفات أخرى لذلك المكافر الملقى في جهنم .

أى : مبالغ في المنع لكل خير بحسب فعله . وهو بعد ذلك كثير الإعتداء كثير الشك فيما هو حق وبر .

والذى جعل معاقبة لها آخر ، في العبادة والطاعة ، فألقياه ، أيها الملكان ، في العذاب الشديد ، الذى ينزله وبهينه .
والاسم الموصول مبتدأ يشبه الشرط في العموم ، ولذا دخلت الفاء في خبره وهو قوله : « فألقياه ... »

وقال قرينه ، أى : شيطانه الذى كان يزين له السوء في الدنيا . والجملة مستأنفة ، لأنها جواب عما يزعمه الكافر يوم القيامة من أن قرينه هو الذى أغواه وحمله على الكفر .

أى : قال الشيطان في رده على الكافر : يا ربنا لأنى ما أضغيت ، ولا أجبرت على الكفر والعصيان ، ولكن ، هو الذى كان فى ضلال مبين ، دون أن أكرمه أنا على هذا الضلال أو الكفر .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : وقال الشيطان لما قضي الأمر ، إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، (١) .

قال ، أى - الخالق - عز وجل - : لا تختصموا لدي ، أى : لا تنازعوا عندي في هذا الموقف ، فإن التنازع لا فائدة فيه .

« وقد قدمت إليكم بالوعيد ، أى : والحال أنى قد حذرتكم على السنة رسل من سوء عاقبة الكفر ، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم .

« ما يبدل القول لدى ، أى : لا خلف لوعدي ، ولا معقب لحكمي ، بل هو كائن لا محالة ، وهو أنى : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

« وما أنا بظلام للعبيد ، أى : وما أنا من شأى أن أعذب أحدا بدون ذنب جهنم . وإما أنا من شأى أن أجازى الذين أسأوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسن ، وأعفو عن كثير من ذنوب عبادى سوى الشرك بى .

« يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، أى : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر - يوم نقول لجهنم هل امتلأت من كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، واكتفيت من كل من جعل معى إلها آخر . . ؟

فترد جهنم وتقول يا إلهى : « هل من مزيد ، أى : يا إلهى هل بقي شيء منى لم يمتلىء من هؤلاء الكافرين ؟ أنت تعلم باخلاقى أنى قد امتلأت ، ولم يبق منى موضع لقدم .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - أنه بقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك أنه وعدها أنه سيملؤها من الجنة والناس .

أجمعين ، فهو - سبحانه - يأمر بن يأمر به لإيها ، ويلقى فيها وهي تقول :
 « هل من مزيد ، أى : هل بقى شئ - يزيدنى ؟ »

هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث ، فقد أخرج البخارى عن أنس بن مالك ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : يلقى فى النار - الكفرة - وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع - سبحانه - فيها قدمه فتقول : قط - أى : حمي حمي ... »

وعن ابن عباس قوله : « وتقول هل من مزيد ، أى : وهل فى من مكان يزاد فى » .

وعن عكرمة قوله : « وتقول : هل من مزيد ، وهل فى مدخل واحد ؟ قد امتلأت ، ^(١) .

وقال الشوكانى : وهذا الكلام على طريقة التخييل والتمثيل ولا سؤال ولا جواب . كذا قيل . والأولى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع .

قال الواحدى : أراها الله تصديق قوله : « لأملاّن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ، فلما امتلأت قال لها : « هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، أى : قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلئ . »

وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة . أى : إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها ..

والمزيد : إما مصدر كالحميد ، أو اسم مفعول كالمنيع . فالأول بمعنى هل من زيادة . والثانى : بمعنى هل من شئ - يزيدونه ... ^(٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٨١ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٧٧ .

وكعادة القرآن في المقارنة بين عاقبة الأشرار والأخيار ، جاء بعد ذلك الحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال - تعالى - : ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد .

وقوله : ، وأزلفت ، من الإزلاف بمعنى القرب ، يقال : أزلفه إذا قرب به ، ومنه الزلفة والزاني بمعنى القربة والمنزلة .. وهو معطوف على قوله - سبحانه - : « ونفخ في الصور » .

وقوله : « غير بعيد » ، صفة لموصوف مذكور محذوف ، ولذا قال غير بعيد ولم يقل غير بعيدة .

أى : وأدنى وقربت الجنة للمتقين في مكان غ-ير بعيد منهم ، فصاروا يرونها ويشاهدون ما فيها من خيرات لا يحيط بها الوصف .

وفائدة قوله « غير بعيد » بعد قوله « وأزلفت » التأكيد والتقريب ، كقولك : فلان قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل ..

قال الجمل ما، لمخصه : فإن قيل : ماوجه التقريب مع أن الجنة مكان ، والأمكنة يقرب منها وهي لا تقرب ؟

فالجواب : أن الجنة لا تنقل ... لكن الله - تعالى - يطوى المسافة التي بين المؤمن والجنة - حتى لساكنها حاضرة أمامه - وذلك من باب التكريم والفضريف للمؤمن^(١) ...

واسم الإشارة في قوله : « هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ » يعود إلى الجنة التي قربت لهم ...

والجمل على تقدير القول ، أى : قربت الجنة ممن هم أهلها ، ويقال لهم عند دخولها : هذا الذي تروونه من نعم ، هو ما سبق أن وعد الله - تعالى - به

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٩٧ .

كل ، أواب ، أى : رجاع إليه بالتوبة ، حفيظ ، أى : حافظ لحدوده وأوامره وفوائده بحيث لا يتجاوزها ، وإنما ينفذها ، ويقف عندها .

« من خشى الرحمن بالغيب .. » ، أى : من خاف مقام ربه دون أن يراه أو يطالع عليه ، والجملة بدل أو عطف بيان من قوله : « لكل أواب حفيظ » وقوله : « بالغيب » متعلق بمحذوف حال من الرحمن . أى : خشيه وهو غائب عنه لا يراه ولا يشاهده .

« وجاء بقلب منيب ، أى : وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه ، مخلص في طاعته ، مقبل على عبادته ... »

هؤلاء الذين يفعلون ذلك في دنياهم ، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم :

« ادخلوها بسلام ، أى : ادخلوا الجنة التى وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان . »

« وذلك ، اليوم وهو يوم القواب والعطاء الجزيل من الله - تعالى - يوم الخلود ، الذى لا انتهاء له ، ولا موت بعده ... »

« لهم ما يشاءون فيها ، أى : هؤلاء المتقين ما يشاءون ويشتون .. فى الجنة . »

« ولدنا مزيد ، أى : وعندنا - فضلا عن كل هذا النعيم الذى يرفلون فيه المزيد منه ، مما لم يخطر لهم على بال ، ولم تره أعينهم قبل ذلك . »

قال ابن كثير : وقوله : « ولدنا مزيد ، كقوله - تعالى - : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ، وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان ، أنها النظر إلى وجه الله الكريم ، (١) .

• • •

ثم تحدثت السورة الكريمة فى أواخرها عن مصارع المكذبين السابقين ،

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٨٤ .

وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وعن الدواء الذي يزيل عن القلوب همومها ،
وعن أهوال يوم القيامة ، فقال - تعالى - :

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسْنَأْ مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَذْبَارِ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ ينادِي الْمُنادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)
يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَلِكَ
حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ
فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) » .

وكم ، في قوله - تعالى - : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن .. » ، خبرية
بمعنى كثير ، وهي منصوبة بما بعدها ، وانقرن : يطلق على جماعة من الناس
تعيش في زمن واحد ، ومقداره مائة سنة - على الراجح - .

وقوله : « من قرن ، تمييز لكتم . » وجمله هم أشد منهم بطشا ، صفة .
والبعش : السطوة والأخذ بشدة .

أى : واعلم - أيها الرسول الكريم - أننا أهلكنا كثيرا من القرون الماضية
التي كذبت رسلها ، كفقوم نوح وعاد وثمود ، وقد كانوا أشد من قومك قرة
وأكثر جمعا ، ومادام الأمر كما ذكرنا لك ، فلا تحزن ولا تبتئس لما يصيبك
من الكافرين المعاصرين لك ، فنحن في قدرتنا أن ندمرهم تدميرا .

والضمير في قوله - تعالى - : « فنقبوا في البلاد ، يعود إلى أهل تلك القرون المهلكة الماضية .

والتنقيب : السير في الأرض ، والطواف فيها ، والبحث بين أرجائها .
يقال : نقب فلان في الأرض ، إذا ذهب فيها . وأصل النقب : الخرق والدخول في الشيء ، ومنه قولهم : نقب فلان الجدار ، إذا أحدث فيه خرقاً .

والمراد به هنا : السير في الأرض ، والتنقيب فيها ...

قال الألوسي : « فنقبوا في البلاد ، أي : ساروا في الأرض وطوفوا فيها حذر الموت ... قال الشاعر :

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كل مجال

وشاع التنقيب في العرف بمعنى التنقيب عن الشيء والبحث عن أحواله ..
والقاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه . لمجرد التعقيب ، وعلى تفسيره - بالتصرف للسبية ، لأن تصرفهم في البلاد مسبب عن اشتداد بطشهم ، وهي على الوجهين عاطفة على معنى ما قبلها ، كأنه قبل : اشتد بطشهم فنقبوا في البلاد ... (١) .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « هل من محيص ، الإنكار والنفي .
والمحيص : المعدل والمهرب ، يقال : حاص فلان عن الشيء يحيص حصصاً ومحيصاً ، إذا عدل وحاد عنه ، وحاول الهروب منه .

أي : أن هؤلاء المكذبين السابقين ، كانوا أشد من مشركي قريش قوة وأكثر جميعاً ، وكانوا أكثر ضرباً في الأرض وسيراً فيها ... فلما نزل بهم بأسنا حاولوا الهرب والفرار ، فلم يجدوا مكاناً يربون فيه ، بل نزل بهم عذابنا فدمروهم تدميراً .

فعليناكم به أيها المشركون - أن تعتبروا بهم ، حتى لا يصيبكم ما أصابهم .
فالقصود بالآية الكريمة ، نسلي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وتحذير أعدائه من سوء عاقبة الكفر والعناد .

« إن في ذلك ، الإهلاك للأمم المكذبة السابقة ، ولذكرى ، أى : لتذكيرة وعبرة . لمن كان له قلب ، أى : لمن كان له قلب يعى ما يسمع ، ويعقل ما يوجه إليه . ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم .
« أو ألقى السمع وهو شهيد ، أى . فيما سقناه عبرة وعظة لمن كان له قلب يعى الحقائق ، ولمن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات ، وهو حاضر الذهن . صادق العزم لتنفيذ ما جاءه من الحق ... »

قال صاحب الكشف : « لمن كان له قلب ، أى : قلب واع ، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له . وإلقاء السمع : الإصغاء . وهو شهيد ، أى : حاضر بفطنته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ... أو هو مؤمن شاهد على صحته ، وأنه وحى الله ... » (١) .

ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ووحدانيته فقال : ولقد خلقا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب .
واللغوب : التعب والنصب والإعياء ، مصدر لغب - كدخل - يقال : لغب فلان لغوبا ، إذا اشتد تعبهُ وضعفه .

أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، في ستة أوقات . وما مسنا بسبب هذا الخلق العظيم نصب أو تعب أو إعياء .

فالمراد بالأيام مطلق الأوقات التي لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .
وقيل هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل من أيام الآخرة ...

وقال سعيد بن جبير : الله - تعالى - قادر على أن يخلق السموات

والأرض وما بينهما فى لحظة ، ولكنّه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ليعلم عباده الثبوت فى الأمور والتأنى فيها .

والمقصود بالآية الكريمة بيان كمال قدرة الله - تعالى - . والرد على من أنكر البعث والنشور . وعلى اليهود الذين زعموا أن الله - تعالى - خلق العالم فى ستة أيام ثم استراجه فى اليوم السابع وهو يوم السبت .

والغناء فى قوله : « فاصبر على ما يقولون » ، فصيحة . أى : إذا كان الحال كما بينا لك يا محمد ، فاصبر على ما يقوله هؤلاء الضالون المكذبون من أقوال لا يؤيدها عقل أو نقل ...

وقوله : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » إرشاده - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يعينه على الصبر .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على أقوال هؤلاء المكافرين ، ونزه ربك - تعالى - عن كل مالا يليق به ، وتقرب إليه بالعبادات والطاعات « قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » ، وهما وقتا الفجر والعصر . وخصهما - سبحانه - بالذكر لفضلهما وشرفهما .

« ومن الليل فسبحه » ، - أيضا - ونزهه عن كل مالا يليق به ، « وأدبار السجود » ، أى : وفى أدبار وأعقاب الصلوات فأكثر من تسبيحه عز وجل - وتقديسه .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضل التسبيح بعد الصلوات المكتوبة ، ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال : « قال : « جاء فقراء المهجرين فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . فقال وما ذاك ؟ قالوا : يصلون كما نصلى . ويصومون كما نصوم . ويتصدقون ولا تصدق .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتم من (١٦ - سورة ن)

بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون
وتحمدون وتكبرون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين .

قال : فقالوا : يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله
فقال - صلى الله عليه وسلم - : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، (١)

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد
ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آتاه الليل فسيح وأطراف
النهار لعلك ترضى ، (٢)

ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يلقي سمعه
لما يخبره به - تعالى - من أهوال يوم القيامة فقال : واستمع
والمستمع إليه محذوف للتحويل والتعظيم . .

أى : واستمع - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - لما سأخبرك
به من أهوال يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - ذلك فقال : يوم يناد المناد من مكان قريب ،
أى : لاستمع إستماع تنبه وتيقظ يوم يناد المناد وهو إسماعيل - عليه
السلام - من مكان قريب بحيث يسمع نداءه للناس جميعا . . .

قال ابن كثير : قال قتاده : قال كعب الأحبار : يأمر الله ملكا أن
ينادى على صخرة بيت المقدس : أيها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ،
إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، (٣)

(١) صحيح البخارى : كتاب الأذان ، باب : الذكر بعد الصلاة ،

ج ١ ص ٢١٣

(٢) سورة طه الآية ١٣٠

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨٨

وفي ورود الأمر بالاستماع مطلقا ، ثم توضيحه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما في الإبهام ، ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .
وقوله : : يوم يسمعون الصيحة بالحق ، بدل من قوله : : ينادى ، .

أى : يوم يسمعون صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء ، سماعا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل . والمراد بهذه الصيحة : النفخة الثانية . ذلك ، اليوم هو يوم الخروج ، من الأجداث كأنهم جراد منفشر .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : : ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون

قالوا يا ويلتنا من بعثنا من مردنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، ثم بين - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : : إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ، .

أى : إنا بقدرتنا وإرادتنا نحيي ونميت من نشاء إحياءه أو إماتته ، وإلينا وحدها مرجع العباد ومصيرهم ، لا يشاركونا في ذلك مشارك .

أذكر - أيضا - أيها العاقل : : يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . . . أى يوم تشقق الأرض عن من في باطنها من مخلوقات ، فيخرجون إلينا سراعا .

كما قال - تعالى - : : يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ، (١)

وقوله : : ذلك حشر علينا يسير ، أى : ذلك التشقق للأرض ، وما يترتب عليه من بعث وجمع وحشر ، يسير وهين علينا ، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكريمة بهذه الآية التى فيها من التسليوة للرسول

- صلى الله عليه وسلم - ومن التحديد الدقيق لوظيفته ، فقال - تعالى - : « نحن أعلم بما يقولون » وما أنت عليهم بجبار ، قد كرر بالقرآن من يخاف وعيد .
 أى : نحن - أيها الرسول الكريم - أعلم بما يقوله هؤلاء المشركون في شأنك وفي شأن دعوتك ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقاب ، فاصبر على أقوالهم ، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحدا سواه .
 وأنت لست بمسلط عليهم لتجبرهم على اتباعك ، وتقهرهم على الدخول في الإسلام ، وإنما وظيفتك التذكيرهم بهذا القرآن لمن يخشى عذابي ، ويخاف وعيدي كما قال - سبحانه - : « قد كررنا أنك أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »
 وكما قال - تعالى - : « وإنما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب »

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة ق ، التي حفظها بعض الصحابة من فم النبي - صلى الله عليه وسلم - خلال تكراره لها في خطب الجمعة .
 نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجة عفوريه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر - مساء الثلاثاء ١٦/٦/١٤٠٦ هـ ٢٧/١/١٩٨٦ م

